حسن حبشي
مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد
دبلوم في التربية وعلم النفس
ماجستير تاريخ بمرتبة الشرف

الشرق العربي بين شقي الرحى

حملة القديس لويس على مصر والشام

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

٢



واجهة دار ابن لقمان بالمنصورة حيث سجن الملك لويس التاسع
(من مجموعة إدارة حفظ الآثار العربية بالقاهرة)



داخل الحجرة التي سجن فيها الملك لويس التاسع بالمنصورة
(ومن مجموعة إدارة حفظ الآثار العربية بالقاهرة)

إلى جنود الفاروق العظيم
أبطال الفالوجة
تحيّة لموقفهم المجيد
وبسالتهم الرّائعة

تصدير

للدكتور عزيز سوريال عطية

أستاذ العصور الوسطى بجامعة فاروق الأول

والأستاذ السابق بجامعات بون بألمانيا وليفربول ولندن بإنجلترا

عندما طلب إلى الأستاذ حسن حبشي تقديمه لقراء العربية بمناسبة صدور كتابه الجديد عن حملة القديس لويس على مصر والشام ترددت في إجابة هذه الرغبة الكريمة من لدنه ، لا لسبب سوى أنه قد أصبح في غير حاجة إلى تقديم مني أو من غيري إلى جمهور المثقفين في العالم العربي ، وهم يعرفونه مؤلفا ومدرساً للتاريخ، كما أنهم يعرفون مؤلفاته التاريخية السابقة لهذا السفر ، ومنها بحثه عن « الحرب الصليبية الأولى » ، وكتابه عن « نور الدين والصليبيون » ، ذلك إلى جانب ما كتب من بحوث ومقالات ، وما نظم من شعر بليغ ، مما هو منشور له في المجلات العربية في مختلف أقطار الشرق الأدنى والأوسط وفي الأمريكتين .

هذا — أيها القارىء الكريم — هو في الحقيقة باعث التردد في نفسي ، بيد أنني أقبلت في النهاية على كتابة هذه الكلمة ، ولكن للتقدير والتشجيع .

عرفت « حسن حبشى » منذ عام ١٩٣٧ عندما كان يَحْضُر علىّ فى تاريخ العصور الوسطى بكليـة الآداب فى جامعة فؤاد الأول ، فما أن بلوته حتى لمست فيـــه الذكاء المفرط ، والإجتهاد الفائق ، وحماسـة لا تخبو للدرس والتحصيل فى مادة التاريخ عامة ، والتاريخ الوسيط على وجه أخص ، وأحسب أنه لا يزال يذكر — كما لا أزال أذكر — أنى بشرته بما يجتنى منه فى ميدان البحث التاريخى ، فما أن تخرج فى الجامعة وهو متوج بما أحرز من درجات علمية ليست بمستغربة منه إلا وبدأ حياته العملية على الفور فى حقل التعليم ، فأجاد فيه كل الإجادة ، على أن تقدمه فى هذا المضمار لم يصرفه ألبته عن الاشتغال بالبحث والتأليف .

ثم شاء القدر بعدئذ أن يُشَـرِّق هو وأن أغرِّب أنا ، فما صرفنى بعد الشـقة عن متابعة نشاطه فى إعجاب ، وبيننا آلاف الأميال ، ومن دوننا بحار وقارات . وكنت أبارك هذا النشاط الوافر بروح المشجع الواثق من أن هذه النبتة ستؤتى غراسها طيبة ، وكنت — ولا زلت — وافر الثقة من أنه يخطو فى الميدان الذى شاء أن يسير فيه خطوات ثابتة قوية ، تهدف دائما إلى الأمام ، غير مكترث بأى صعاب تعترضه أو عقبات تقف فى طريقه .

وإذا كان الأستاذ حبشى قد أخرج ما أخرج من بحوث نافعة وترجم ما ترجم من كتب قيمـة وهو ما زال بعد فى مقتبل العمر

ونضاوة الشباب فإنه لابد — على مر السنين — بالغ الغاية التى أرجوهـا منه وله ، ولأمثاله من الشباب المؤمن بأن رسالة الجيل الجديد — لمصر وللشرق العربى — إنما تتركز فى العلم الصحيح والبحث الدقيق والصبر على الاطلاع ، وهى كلها مجال إظهار عبقرية الأمة ، وأما غير ذلك مما يغتر به السطحيون فزبد لا يلبث أن يذهب جفاء .

° ° °

وهذا الكتاب الصغير الذى بين يدى القارىء ثمرة شهية جديدة من ثمار ذهن هذا المؤلف الخصيب ، وموضوعه — بعد كل شيء — حلقة من حلقات ذلك الصراع العتيق بين الشرق والغرب الذى هو أقدم من ظهور المسيحية والإسلام ، وهو صراع حضارى وثقافى بين شقى العالم ، امتلأ به التاريخ الإنسانى فى مراحله المختلفة

ويتحتم على المتصدى لخوض غمار البحث فى العلاقات بين الشرق والغرب الإنكباب فى جلد وأناة على درس الأصول العربية والأوربية على حد السواء وليس هذا بالهين ولا اليسير ، كل ذلك سعيا وراء الحقيقة المطلقة ، التى لا هى تاريخ الحروب الصليبية من وجهة النظر العربية أو الإسلامية فقط ، ولا هى تاريخ الحروب الصليبية من وجهة النظر الأوربية أو المسيحية فقط ،ولكنها نتيجة

الأسانيد المتضاربة ومقارنة بعضها ببعض واستنباط الحقيقة التاريخية من خطوطها المتشابكة المعقدة .

ويبدو للقارىء أن المؤلف قد استطاع أن يتناول حملة الملك لويس التاسع على هدى الأصول العربية ككتب ابن واصل والعينى والمقريزى وأبى المحاسن وغيرها ، واسترشد إلى جانب هذا بما كتبه الفرنجة من أمثال جوانفيل وروتلان وتاريخ هرقل المعروف لدارسى العصور الوسطى الغربية ، فجاءت معالجته لهذا الموضوع الشائك سليمة من وجهة البحث التاريخى من حيث العرض العلمى والنتائج التى توصل إليها ، وقد صاغ ذلك كله فى أسلوب فنى جزل واضح العبارة ، لا يحس فيه المطالع إلتواء ولا يشعر معه بانقباض أو ملل بل يدفعه دفعا لمتابعة القراءة ، وذلك ما أصارح به القارىء من أننى أقبلت على مطالعة هـــذا السفر الجذاب من مطلعه إلى خاتمته فى جلسة واحدة .

* * *

وقد تكون هناك قلة من المتعمقين فى الدراسات التاريخية تبدو لها نواح كان ينبغى أن تعالج بغير ما عولجت به هنا من حيث التوسع ، إلا أن ذلك لا يضير الكتاب بحدوده الصغيرة وفى ظروف المؤلف الخاصة وهو فى حل وترحال ما بين مصر والعراق ،

مقدّمة

كان الشرق الأدنى - ولا يزال - هدفا لمطامع خارجية ، سبيلها الفتح والضم أحيانا ، والتغلغل الاقتصادى أحيانا أخرى ، وقد تغتفر الأساليب الثقافية باعتبارها وسيلة من وسائل التقدم الفكرى ومسايرة موكب الحضارة الإنسانية ، وقد تغتفر كذلك العلاقات الاقتصادية إذا قامت على أساس من التبادل ، وهكذا الحال أيضا إزاء البعوث الدينية ، لا سيما إذ وجهت عنايتها نحو الثقافة .

ولقد كانت مصر فى أدوار تاريخها المختلفة عرضة للاحتكاك بالغرب نتيجة موقعها فى مفترق الطرق بينه وبين الشرق ، واختلفت صور هذا الاحتكاك ، فكان منه ما هو سياسى ، ومنه ما هو اجتماعى ، ومنه ما هو ثقافى ، ولم يحملها تعصب ما على الإعراض عن جديد ما لجدته ، أو الأخذ بقديم ما لقدمه ، ولكنها كانت بوتقة ينصهر فيها الجديد والقديم معاً ليخرجا فى النهاية سبيكة مصرية خالصة ، ومعنى هذا أيضا أنها خرجت بأحسن ما يؤدى إليه هذا الاحتكاك من نتائج طيبة وصبغتها بذاتيتها الخاصة . ومع تعاقب دول مختلفة - فى أدوار التاريخ المصرى القديم والوسيط - على حكم البلاد ، إلا أن ذلك لم يضعف قط بحال من الأحوال الروح المصرية الصميمة ، ولم تفقد أهل البلاد طبيعتهم الخاصة ، بل الواقع غير المنكور أن

وما يحيط بذلك الوضع من ضيق فى الوقت وعدم توفر أسانيد مباشرة فى مكتبات غير هذين البلدين .

وإن الجهد الذى أمامنا فى هذا الكتاب لجهد مشكور ، يدل على عمق الباحث وكفاءته وقدرته على استيعاب الخطوط الرئيسية فى موضوع هذه الحملة ، كما يدل فى الوقت ذاته على أنه يرتجى منه الخير الكثير فى ميدان البحث التاريخى ، وإذا كان هذا يومه فى التأليف فأكرم بغده .

لذلك أجد نفسى مغتبطاً كل الاغتباط أن أكتب هذا التصدير لدراسة أتمنى أن تتبعها غيرها على نمطها ، كما أتمنى أن يكون هذا البحث مثلا طيباً يحتذبه شباب النهضة العلمية الحديثة فى معالجة تاريخ الشرق وأحياء تاريخنا القومى ؟

الاسكندرية
فى ١٥ فبراير سنة ١٩٤٩

عزيز سوريال عطية

المصريين مصّروا كل ما مرّ بهم ، وليس يعيب بلدأ بحال من الأحوال أن يكون قد مرّ بهذه الأدوار إلا أن تكون تلك المراحل قد أفنت شخصيته القومية ، الأمرُ الذي لم يحدث قط فى مصر ، وما على المتشكك فى تلك الحقيقة إلا أن يطالع تاريخ هذه البلاد السياسى مقرونا بتطوّرها الاجتماعى والثقافى ، لتنجلى له الحقيقة سافرة ، وليزول كل شك فى صدره .

وإذا كانت مصر قد تعرّضت للأخطار الخارجية ، فإنها كثيراً ما كانت تنهض بالحرب لا دفاعا عن كيانها بل بما يقتضيها إياه واجب الجوار لبعض دول تربطها بها روابط مختلفة ، وطالما قامت بدور المدافع عن رقعة الشرق الأدنى من التوغل الحربى الأجنبى ، وما يتبع ذلك التوغل من اســتغلال موارد البلاد الاقتصادية لصالح الفاتح ، وهذا الكتاب لمحة عابرة لحرب من حروب جمة قامت فى العصر الوسيط بقصد الاستيلاء على فلسطين والشام ، وأهم من ذلك كله — فى نظر المغير — إزالة قوة مصر من الميــدان ، يقينا من الغرب الأوربى — وهو صادق فى هذا اليقين — أن زوال سلطان مصر يُسَهّل تحقيق المطامع الأوروبية فى بقعة الشرق الأدنى ، التى نعرفها اليوم بالشرق العربى ، وعلى هذا الأساس يمكن إلى حد ما أن نفسر التجريدات الصليبية التى بدأت — باتفاق بين المؤرّخين — فى ختام القرن الحادى عشر للميلاد ، والتى لا زالت حتى الساعة

موجهة إلى هذه الربوع ، مرتدية مسوحاً مختلفة .

ولقد استطاعت مصر — باعتراف الباحثين المؤرخين — أن تصد هجمات الصليبيين ، سواء أكانت هذه الهجمات ضدها مباشرة أم ضد البلاد الأخرى التي تربطها بهـــا رابطة اللغة والجوار ، واستطاعت تلك البلاد المجاورة أن تضمن سلامتها وعدم وقوعها فريسة للاستعمار الأوربي بفضل قوات الجيوش المصرية في مختلف أدوار التاريخ وفي شتى ميادين القتال ، ومصر تستطيع أن تفخر بهذا الجهاد الذي تقوم به غير مدفوعة إليه بكسب مادي ، أو توسع إقليمي ، أو سيطرة ما ، بل تبعثها عليه الرغبة الصادقة في أن تستقر أمور كل بلد في أيدي أهليه .

* * *

ولقد قُدِّر لمصر أن تقوم منذ سبعة قرون تماماً بدفع غارة أوربية صليبية ، حين قذفت أوربة بجحافلها تحت قيادة الملك الفرنسي لويس التاسع ، بقصد استلاب فلسطين ، وشاء القدر أن تصطدم هذه الحملة بالقوات المصرية ، فلقيت شر أنواع الهزيمة في المنصورة ، وهي في التاريخ الصليبي تعتبر « حطين » الثانية ، إذ وقت الشرق العربي من الوقوع في أيدي المخاطرين والمغامرين الأوربيين .

ولقد جدَّت أحداث اقتضت أن يخرج هذا الكتاب الصغير مبكراً عن موعده وسابقاً لغيره في موضوع الحروب الصليبية ،

ليطالعه القارىء العربي فيقف على صورة من صور الدفاع قامت بها الجيوش المصرية منذ أحقاب ، ولقد كان من الممكن — لو تخلت مصر يومذاك عن الدفاع أو هزمت في الميدن — أن يحتل الأوربيون بلاد الشرق الأدنى ، لاسيما وأن بغداد ما لبثت غير قليل من هذه الأحداث أن سقطت أمام قوات المغول ، وسقطت معها الخلافة العباسية ، وهنا يبدأ الدور الثاني في كفاح المصريين ضد المغول ، إذ استطاعوا هزيمتهم وصدهم نهائيا .

* * *

وبعد فإن كل ناحية من نواحي هذا الكتاب قائمة على ما ورد في المراجع الأصلية ما بين عربية وأوربية ، قديمة وحديثة ، ليس لي فيها فضل إلا عرضها إن يكن ذلك فضلا .

الوزيرية . بغداد
الإثنين ٢٤ شباط ١٩٤٩ م

حسن حبشي



١

شهدت القرون الوسطى حركات خطيرة قام بها الغرب تحت ستار الدين لاستعمار الشرق الأدنى ، وهذه الحركات هى المعروفة فى التاريخ السياسى بالحروب الصليبية ، وعلى الرغم من كثرة الحملات التى شنتها ممالك أوروبة وجمهورياتها المختلفة إلا أنها لم تستطع تحقيق أهدافها من الوجهة السياسية ، أو على الأقل لم يُقدَّر لهذا الجانب السياسى البقاء طويلا ، إذ سرعان ما تغلبت عليه قوات الشرق الأدنى وأزالته .

على أنه لا يُنكر أن مصر وقفت من هذه الحروب موقفا مجيداً ، لولاه لتغيَّر وجه التاريخ تغيراً كبيراً ، فقد استطاعت أن ترد هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، مما نتج عنه حماية بلاد الشرق العربى بأجمعها — فى العصر الوسيط — من خطر الاستعمار الأوربى ، إن جاز استعمال هذا اللفظ ، وعلى من يداخله الشك فى تلك الحقيقة أن يتصور ما كان يؤول إليه حال منطقة الهلال الخصيب الممتدة من أرض العراق إلى فلسطين لو قدر لفيليب أغسطس أو رتشارد قلب الأسد الانتصار على قوات صلاح الدين ، ولا مشاحة فى أنه لو تهيأ النصر للغرب فى وقعة حطين لذهبت قوة مصر ، ولضاع خط الدفاع



الأول عن البلاد العربية جمعاء ، ولنتج عن ذلك عجز مصر ، فيما بعد عن صد قوات المغول — الذين «خلقهم الله من سخطه» كما يقول أحد الكتاب القدماء — بعد أن أزالوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م ، وفتكوا بالمستعصم ، وخربوا بغـــداد عاصمة الشرق السياسية والروحية يومذاك ؛ فقد أدت هزيمة التتار — أمام القوات المصرية فى وقعة «عين جالوت» إلى إبقاء الدول العربية الإسلامية واستمرارها فى الحياة ، واستعادتها قوتها فيما بعد لتحمل فى العصر الحديث راية القوة ، ولتساهم بنصيب غير ضئيل فى إقرار السلم والأمن العالميين .

ذلك نصيب مصر فى الدفاع عن كتلة البلدان العربية الإسلامية فى العصر الوسيط ، مما لم يخف على الغرب ، فرأى تســـديد قواته لضرب هذا المعقل الأشب . فكان من ذلك حملاته المتكررة على شمال الوادى .

وربما كان القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أحفل القرون بالحركات الخطيرة التى سطرت صفحات جديدة فى تاريخ الشعوب فى الشرق والغرب ، فقد تبلورت فيه قوة الترمنديين ، وظهر أثر الصراع العنيف بين الإمبراطورية والبابوية ، وبدأت جرثومة التفكير الحر فى النواحى المختلفة ، وفوق هذا كله وجّهت نحو مصر على وجه الخصوص حملات قوية ، كان عدم انتصارها فى تحقيق

أهدافها بياناً صريحاً جلياً لقوة شعبها ، وكان المقصود من ذلك سحب ما بيدها من السلطان حتى يسهل وقوع فلسطين فى أيدى المخاطرين والمغامرين الأوربيين ، ثم بقية أقاليم الشرق العربى ، ولم يفت ذلك مؤرخى العصور الوسطى ، فنسمع أحدهم يقول فى صدد حملة لويس على مصر « إن لويس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الأفرنج — وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية » .

ولعل تلقيب الملك لويس « بالقديس » ما يدل دلالة واضحة على سمة هذه الحملة ونزعتها الحقيقية ، وأنها كانت تهدف إلى إزالة ما لمصر من قوة وسلطان لتتفرغ مطمئنة إلى القضاء على استقلال بقية العالم الإسلامى ، ولو قُدّر النجاح لهذه الحملة فى تحقيق أهدافها ، ولو لم تقف الجنود المصرية وقفة كريمة سجلها لها التاريخ فى سجل البطولة وأضافها إلى سوابق مجيدة لكانت مصر وبقية الشرق العربى اليوم فى نطاق الأملاك الفرنسية ، وما يتبع ذلك من زوال الروح القومية أو تأخرها فى الظهور آماداً طويلة ، ولكانت منطقة الهلال الخصيب — من العراق إلى جنوب وادى النيل — فرنسية الروح والمظهر ، نظراً إلى ما أثر عن الفرنسيين من الشدة والعنف فى بسط سلطانهم السياسى على الأملاك المفتوحة الخاضعة لهم .

ولم يترك لويس التاسع وسيلة لتحقيق أمنيته فى القضاء على مصر والشرق الإسلامى إلا واصطنعها ، فنراه — وهو المسيحى « التقى » —

٣

سرت الحماسة بين الجميع ، وهبت فرنسا بمقاطعاتها المختلفة وطبقاتها المتعددة للسير فى ركاب لويس التاسع والانخراط تحت لوائه ، وإن تأخر المسير أربع سنوات للاستعداد ، وبذلك توفر لعاهل فرنسا ما لم يتوفر لملك غيره من قبل ، لا سيما وأن حملة ١٢٤٨ إنما هى حملة لم يدع إليها فى البداية أحد من البابوات ، بل دعى إليها ملك استطاع بفعاله الكريمة النابهة أن يجمع حوله القلوب ، وما أشد إخلاص الرعية فى كل زمان ومكان واستجابتها لملكها حين ترى عطف هذا الملك وحبه الخالص لها ، وهكذا يستطيع الملوك أن يأتوا بالمعجزات حين يعطفون على شعوبهم ويشاركونهم أفراحهم وأتراحهم ، فإن دعوهم للحرب هبوا مهطعين ، يبذلون النفس وهى أقصى غاية الجود والبذل .

على أن نهوض لويس التاسع كان له ما يبرره يومئذاك ، ذلك أن القدس كانت قد ضاعت من أيدى الصليبيين منذ أمد قصير (١٢٤٤ م) ، كما أصيبت غزة بضربة على يد القوات المصرية ، وكانت هزيمة الفرنجة عندها واستيلاء نواب الملك الصالح نجم الدين عليها وعلى السواحل الشامية باعثة الفزع فى قلب الملك لويس وغيره[١] ، فما حمل روبرت — بطرك بيت المقدس — على أن ينفذ

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور مصطفى زيادة) ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

لا يرى غضاضة فى مد يده إلى المغول ، ومحاولته الاتفاق معهم ، لما يدركه فيهم من الرغبة العنيفة الملحة فى إزالة القوى الإسلامية، ليسهل عليهم بعدئذ الانطلاق فى ربوع العراق والشام ومصر وشمال إفريقية؛ فكان من جراء هذه النزعة فى لويس التاسع أن اتخذ سياسة التقرب من التتار الذين كانوا يحكمون يومذاك رقعة غير ضئيلة، تشمل شمال الصين وتركستان وفارس وجورجيا وقسما من جنوب الروسيا ؛ وكان لويس يدرك ميول المغول — لا سيما ملكهم — إيلخان جيوك Guyuk إلى النساطرة[1]، واستوزاره جماعة عن يعطفون على أتباع هذا المذهب .

ولم يقف لويس عند هذا الحد بل تعداه إلى محاولته الاتفاق مع جماعة الحشاشين فى بلاد الشام الذين كانوا إلبا على الإسلام والمسلمين وعلى كل مجاهد عربى يحاول توحيد القوى الإسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحاً منهم منذ البداية فى عهد الصليبيين الأوائل، وفى محاولتهم القضاء على كل حركة إفاقة يحاول المجاهدون المسلمون القيام بها لدفع الفرنجة عن الشرق ، ولم تخف على لويس هذه النزعة الخطيرة من جانب الحشاشين وإسماعيلية الشام ، فمدّ لهم يده مصافحاً وموادعاً، واتفق مع زعيمهم شيخ الجبل، واتصلت السفارة بين الملك المسيحى وبين شيخ إسماعيلية جبل نصيرى من أعمال الشام بما يتفق وصالح

---

(١) Cf. Manus. de Rothelin, p. 569.

الطرفين اللذين أخذ كل منهما استغلال الآخر لمصلحته الذاتية ، كما نلاحظ أيضا أنه ما كاد يصل إلى عكا — عقب إطلاق سراحه من أسر المماليك — حتى اتصلت السفارة بينه وبين شيخ الجبل ركن الدين خورشاه [١] ، وكان كبير الاسماعيلية هو الذى بدأ المراسلة ، إذ أنفذ من قبل أحد فدائييه . وعلى الرغم من أنه لم يكن شيخ البلد يرغب فى أن تكون هناك موادعة بينه وبين لويس التاسع ، وعلى الرغم من أن كل ما كان يهدف إليه هو تهديده — من طريق خفى بقوته وقوة طائفته — إلا أن المودة سرعان ما توثقت بين كبيرى الجماعتين .

٢

تولى لويس التاسع ملك فرنسا يوم ٨ نوفمبر ١٢٢٦ م بعد أبيه لويس الثامن ، أما أمه فهى الملكة بلانش Blanche ابنة الفونس التاسع ملك قشتاله ، وكانت بلانش شديدة التقوى خالصة الإيمان قوية التمسك بمذهبها ، تجد الراحة والطمأنينة فيما تقرأه من الكتب الدينية وأعمال الرسل ، فكانت أميل للناحية الروحانية وإن كانت قد اشتدت فى أخريات أيامها ضد زوجة ابنها ، ومع أنها كانت مكروهة من الشعب نظراً لعدم خلوص عنصرها ، إلا أن هذه الناحية الدينية القوية ، وما انطبعت عليـــه من العمل لما فيه خدمة

(١) E. Browne: A Literary History of Persia, Vol. II, p. 456.

الكنيسة واللائذين بها كانا من أكبر العوامل فى تخفيف الكراهية ضدها إلى حد بعيد ، كما أن انصرافها للدين قلّل إلى مدى كبير من تدخلها فى السياسة : ملكةً أو وصية ، وجعلها تُلقى الجانب الأكبر من اهتمامها إلى ولدها لويس : ولى عهد وملكا [١] . وقد عنيت الملكة بلانش بتنشئة ولدها نشأة قوية من الناحيتين العلمية والأخلاقية ، فعهدت به إلى جماعة من خيرة علماء عصرها ، وأحاطته برعايتها وحدبها وحنوها ، على أن هذا الحنان ما كان ليطغى بحال من الأحوال على محاولتها تقويمه تقويماً مسيحياً خالصاً ، ذلك أنها كانت تدرك أن ولدها هذا إنما هو للدين أولا وقبل كل شيء ثم للدنيا ثانياً ، فإذا تعارضت الناحيتان وتضاربت مصالحهما فلا شك أنها تؤثر فى صميم نفسها أن يعمل ابنها ما فيه صالح العقيدة حتى ولو كان هذا العمل مؤدياً إلى ضياع مصالحه الدنيوية ، فكانت تقول إنه أهون على نفسها أن تشاهد مصرعه بعينى رأسها من أن يرتكب خطيئة تغضب الرب . وإذا كان ناشيء الفتيان ينشأ على ما عوده عليه من حوله ، فلا مشاحة إذا شب الغلام وقد أشرب حب الدين إشراباً ملك عليه نفسه وسيطر على جوانحه ، وانعكس أثر هذه التعاليم فى حياته غلاماً ويافعاً وشاباً وملكا ، فتآلف الناس — والمؤرخون فيما بعد

(١) Ach. Luchaire, Le Royaume de France (Lav. & Ramb.), p. 379 — 380.

على تسميته بالقديس ، تسميةً انفرد بها من بين الملوك وغيرهم ، وراحت علما عليه دون غيره ، حتى إن الذهن لينصرف إليه دون سواه ولا يخطئه الفكر إن طرقت السمع كلمة « القديس لويس ». والواقع أن دفاعه عن الدين كان دفاعا صادراً عن نفس مؤمنة به خالص الإيمان ، حتى إنه ما كان يعبأ بعرشه فى سبيل رعاية الصالح المسيحى العام ، فهو من طراز ليس له فى الغرب من الأشباه كثيرون أو قليلون فى تلك العصور ، رغم اتسام حروب هذه القرون بالسمة الدينية ، ومما يذكر عنه أنه اغتنم فرصة حملته الصليبية على عكا وأدى فريضة الحج إلى « الناصرة » ، ويصف أحد المؤرخين منظر دخوله إليها بأنه ما كاد يشارف أرباضها ، وتطالعه قبابها ، وتطل عليه ذرى كنائسها حتى ترجّل من على ظهر جواده وخر ساجداً ، واقتصر طعامه يومه هذا على الخبز الجاف والماء القراح ، وإن هذا الموقف ليذكرنا بموقف شبيه له منذ قرن ونصف قرن من الزمان ، يوم دخل جو دفروى دى بويون مدينة بيت المقدس على رأس البقية الباقية من الحملة الصليبية الأولى ، وأبى أن يلبس تاجا من الذهب « حيث لبس المسيح الشوك[١] تاجاً » ، أضف إلى هذا ما يذكره المؤرخون من عدله وإحقاقه الحق ولو على نفسه[٢] ، وترجمته التى كتبها جوانفيل

(١) حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٨٩ .

(٢) Joinville's Chronicle, p. 151 — 152.

حافلة بالصور الكريمة الطيبة الدالة على خلوص نفسه لله ، واهتمامه برعاية المصالح المسيحية ما وسعه الجهد ، وهذا هو الإيمان الذى جعله يقف من الجماعات المملوكية — حين وقوعه فى أسرهم — موقفاً أكبروه فيه ، إذ لم تطر نفسه شعاعاً ، ولم يجزع حين هددوه بالقتل ، ولعل الناحية الدينية فى لويس لا تظهر واضحة إلا إذا قورنت بما اجتاح ذلك العصر من ظهور حركات فكرية معينة ، اعتبرت خطراً على الكنيسة وهرطقة يجب أن تحارب ، وبدعة يتحتم على المؤمنين الخلص نبذها ومحاربة أصحابها .

والواقع أن الكنيسة كانت تمر بدور من الضعف شديد ، فلم تعد لها تلك المكانة التى كانت لها فى القرن الماضى لاسيما فى أوائله ، وأخذت جماعات كثيرة تظهر فى شتى نواحى أوربة ، وهى النواحى المستظلة بالراية المسيحية ، وشرعت هذه الجماعات تعمل بما لم ترض عنه الكنيسة ورجالها ، مع ما قد يكون فى عمل هذه الجماعات من روح لا تناهض المسيحية فى صميمها ، بل إن الكنيسة تعرضت لسهام نقد فئة من رجالها الخلص الساعين لنهضتها ، وذلك أن رجال هذه الفئة هالهم ابتعاد « الكنيسة » عما هو مفروض فيها ، واحتجانها الأموال الكثيرة دون أن يكون ثم سبيل مشروع يبرر هـــذا الاحتجان ، وحسبنا أن نشير إلى أن من بين الغاضبين على الكنيسة غضباً للكنيسة ذاتها «برنارد دى كليرفو» ، الذى كان يتمنى — كما جاء

فى رسالة له إلى البابا — أن يمتد به الأجل إلى اليوم الذى يرى فيه « كنيسة الرب تعود سيرتها الأولى فى أيامها الخالية ، حين كان يلقى الرسل شباكهم لتصيد الأرواح ، لا لاكتساب الفضة والذهب » ، وكان ذلك قبل قرن من الزمان من ظهور الحركة الصليبية التى تزعمها لويس التاسع ، واستمرت حركات « الهرطقة » تنتشر فى أوربة كالنار تسرى فى الهشيم طوال ذلك القرن ، وأصبحت الكنيسة أشبه بزورق فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه أمواج ، كلما حاول ربانها صد التيارات من جهة غشيه تيار أقوى من جهة أخرى .

فتعرضت الكنيسة لمهاجمة « بطرس أبيلارد » ، ومن بعده لتلميذه « أرنولد الذى هو من Brescia فقد دعا بوجوب اعتزال الكنيسة ممارسة الأعمال الدنيوية واقتصارها على تأدية رسالتها الروحية ، وأن تكتفى بما تجبيه من الأعشار ، وتتجلى خطورة « أرنولد » مما وصفه به « سنت برنارد » من أنه « رجل أقواله كالشهد المشتار ، أما تعاليمه فسامة ، قد نبذته برشيا ، وتقززت منه رومة ، ونفته فرنسا ، ولعنته ألمانيا ، وأبت إيطاليا قبوله » ، ومع أن أرنولد لقى خاتمة محزنة على يد فردريك بربروسة إلا أنه بث فى صدور تلاميذه من بعده ناراً ظلت مشبوبة الأوار على الدوام .

ومن أخطر الحركات الإلحادية التى شهدها الغرب الكاثوليكى حركة « الفالدنس » Waldens ، التى نشأت براعمها الأولى ونضجت

وتفتحت للحياة فى مدينة ليون ، وتنسب الحركة إلى تاجر ثرى من تجار تلك المدينة كان يجول ذات يوم فى السوق ، حين أنصت إلى أحد المنشدين ينشد فى غناء شجى سيرة أحد القديسين ، فوقعت السيرة من نفسه موقعاً كريماً أخذ بمعاقد قلبه ، ووجدت تربة خصيبة، فحاول تقليد هذا القديس ، فنزل عن كل ما يملك إلى زوجه وبناته وإلى الفقراء ، وتجرد من كل زخرف الدنيا وترك بلهنيتها دبر أذنه ، وخرج فى مسوح الرهبان ، وتبعه جماعة ممن تأثروا بهذه الفكرة ، وأطلق عليهم فى التاريخ لقب عرفوا به ذلك هو «رجال ليون الفقراء» على أنهم وجدوا معارضة قوية من الكنيسة التى رفضت أن تأذن لهم بالتبشير ، وكان مما نادوا به أن الدعوة تستجاب سواء أكانت فى الكنيسة أم فى المزود .

من هذا كله يتبين لنا أن الكنيسة وجدت معارضة قوية منذ منتصف القرن الثانى عشر ، لذلك ليس من العجيب أن يكون لويس التاسع نسيج وحده فى العطف على المبادىء الكنسية ، وأن يعتبره رجال الدين واحداً منهم ، وأن يبالغوا فى تمجيده ، إذ لم يكن من المنتظر أن يقف ملك ما من الملوك إلى جانب الكنيسة هذا الموقف ، فكان رجلا لا تأخذه هوادة ولا رحمة إزاء الجماعات التى تحوم حولها الشكوك فى مملكته ، ولا يمنع المرء من بطش الملك قوة الشخص أو مكانته فى الدولة والمجتمع ، كما انصبت نقمته كذلك على اليهود ،

فقسى عليهم وذاقوا فى زمنه كثيراً من الويلات سواء فى النفس أو المال أو مصادرة أملاكهم [1]

— ٣ —

ومهما يكن الأمر فقد وجدت هذه الحركات الإلحادية وأشباهها عطفاً غير ضئيل من الكثيرين من العلماء والمفكرين بطبيعة الحال وكذلك من الأمراء ذاتهم . أما لويس فكان ملكاً مسيحياً مخلصاً لعقيدته كل الإخلاص ، لا يساوره أدنى شك فى أى تعليم من تعاليمها ، وخلاصة تفكيره واضحة فيما كتبه جوانفيل [2] عنه ، حيث يقول « قال لويس إنه يتحتم علينا أن نعتقد اعتقاداً قوياً بمبادىء الإيمان ، لا خوفاً من الموت ، أو رهبة من أى ضرر قد يلحق الجسم ، وكان يقول إن العقيدة المسيحية والإيمان المسيحى شيئان يجب أن نعتقد فيهما اعتقاداً جازماً ، رغم أننا قد لا نكون متأكدين منهما إلا سماعاً » ، وهو إيمان كإيمان العجائز يجد فيه كثير من الناس الراحة التى لا يجدها سواهم من المتشككين الذين يجهدون أنفسهم ولا يصلون إلى شىء ما تطمئن إليه نفوسهم ، والإيمان العميق الصادق خير عزاء للنفوس المجهدة ، وأحوج الناس إليه من انغمروا فى المادة ، إذ تمر عليهم أوقات يدركون فيها أن الراحة النفسية

---

(1) Luchaire: Le Royaume de France, p. 408.
(2) Joinville: op. cit. p. 145 — 146.

أجدى من كل ترف مادي لا يحقق الاطمئنان الروحي . ويجمل القول في لويس إنه كما يذكر أحد الكتاب كان محققاً لقول بولص الرسول في رسالته إلى تيموتاوس [1] « التقوى نافعة لكل شيء ، إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة ، صادقة هي الكلمة ، ومستحقة كل قبول ، لأننا بهذا نتعب ونعير ، لأننا قد ألقينا رجاءنا على الله الحي الذي هو مخلص جميع الناس ولاسيما المؤمنين » وقد سيطرت هذه الفكرة سيطرة تامة على ذهن لويس التاسع ، وعلى ضوئها يمكن تفسير جميع أعماله في ناحية الإدارة أو الحكم أو الحرب .

كان لويس يتطلع منذ زمن بعيد لزيارة الأراضي المقدسة لتطمئن روحه بالبقعة التي شهدت المسيح وكانت مسرحاً لنضاله ضد اليهود ، والذين انحرفوا عن تعاليم موسى ، فكان ذلك الصراع العنيف بين الإيمان والإلحاد ، وبين المسيح واليهود وبعض الجماعات اليونانية ، كما كان لويس في الوقت ذاته دائم التطلع لتحرير مسيحي بيت المقدس من كل سيطرة دينية غير نصرانية ، ويلاحظ أن ذلك القرن والقرن السابق له قد شهدا حركات صليبية خطيرة لم تكن حركة لويس هذه خاتمتها ، لكنه على كل حال طمع في استخلاص بيت المقدس وما حوله للمسيحيين دون غيرهم ، وإن فاته أن هناك طوائف مسيحية معينة لا يرضيها الرضاء التام أن يكون للغرب السيطرة الروحية على تلك البلاد ،

---

(١) تيموتاوس أولى ، ٤ : ٨ — ١٠ .

على أنه وجد ممن حوله — كأمه ورجال دولته — ما حال بينه فى بداية الأمر وبين تحقيق هذه الأمنية خوفا عليه أوماشابه ذلك ، لكن تشاء الظروف أن تلعب الصدفة العجيبة دوراً شاذا لم يكن منتظرا ، تمد فيه يد المعونة له لإخراج فكرته إلى حيز التنفيذ ، وتحقق له أملا ظل يراود خياله أمدا طويلا ، وإن جاءت هذه المعونة على صورة مكروهة أولا ، ورب ضارة نافعة كما يقولون ، إذ مرض لويس مرضا خيف عليه منه ، وأرجف الناس بموته حين انقطعت أخباره عن أهل مملكته الذين لم يملكوا أنفسهم من البكاء والعويل عليه والتأسف لموته المكذوب ، ذلك أن لويس لم يكن ملكا فحسب فى عينى شعبه بل كان أبا وقديسا يرعاه فى ملماته [١] فلا جرم إن كان الشجى عليه طويلا ، والحزن لدعوى موته شاملا عظيما :

والناس صنفان: موتى فى حياتهمو وآخرون ببطن الأرض أحياء

ويقص مؤرخه جوانفيل [٢] رواية هذا الحادث على الصورة التالية ، وهى أنه « أصيب بمرض خطير وهو فى باريس أدناه من نهايته ، حتى ليقال إن إحدى السيدات اللائى كن يعنين به أرادت أن تلقى الثياب على وجهه قائلة إنه قد مات ، غير أن هناك سيدة أخرى كانت واقفة إلى الجانب الآخر من فراشه أبت ذلك عليها قائلة إن الروح لا تزال فى جسده . . وبينما هو ينصت إلى هذه المحاورة بين

(١) Luchaire: op. cit., p. 408.

(٢) Joinville : op. cit, p. 162 — 163.

هاتين السيدتين إذ سرعان ما أسبغ الرب عليه الصحة ، لأنه كان قبل ذلك مباشرة أبكم لا يستطيع نطقا ، فلما أسعفه الكلام سألهم أن يجلبوا له الصليب » ، ومن هنا داخله الاعتقاد بأن العناية الإلهية قد رعته ومنت عليه بالشفاء ليقوم بدور كبير ادخرته له ، وطبيعي لمثل هذا الرجل أن يذهب به التفكير يومذاك إلى محاولة نجدة الأراضى المقدسة فى الشرق وتيسير السبيل أمام حجاج القبر المقدس من الجماعات المسيحية المختلفة فى كافة أنحاء العالم ، بل وأن يعمل على نشر العقيدة المسيحية بين من لا يؤمنون بها ، وحينذاك أجمع العزم على حمل الصليب والخروج للشرق من « أجل الرب واستخلاص بيت المقدس من أيدى المماليك حكام مصر » ، وحذا حذوه كثير من الأمراء والأشراف ، وبادر بالانضمام إلى الحملة إخوته الثلاثة روبرت كونت دارتوا d'Artois ، وألفونس كونت بواتييه، وشارل كونت أنجو Anjou الذى صار فيما بعد ملك صقلية ، وكذلك هيج كونت برجنديا وولیم كونت فلاندر ، وكنت ساربروك وكثيرون غيرهم ، وكان لبعضهم دور مشهور فى حرب دمياط والمنصورة لا سيما كونت أنجو ، كما لاقى أحد أخوته مصرعه فى هذه الحملة ، والمنايا رصد للفتى حيث سلك ، فقد قدر لهذا الأخ أن يخرج من فرنسا وهو يتفجر حماسة وشبابا ليلقى حتفه فى مصر وفى أحد أزقة المنصورة ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

إلى أمراء الغرب سفارة برياسة أسقف بيروت تستحثهم على النهوض بحملة صليبية إلى الشرق . على أن الغرب النصرانى لم يكن فى استطاعته استجابة هذه الدعوة نظرا للاضطرابات السائدة به إبان تلك الحقبة ، كما أن موقف فردريك الثانى من الكنيسة أو موقف الكنيسة من فردريك الثانى حال دون تنفيذ هذه الفكرة التى نهضت فرنسا وحدها بأعبائها ، وقد كان الخُلف على أشده بين البـــابا أنوسنت الرابع Innocent IV والإمبراطور فردريك الثانى ، وهو نزاع لم تخف شدته على الشرقيين بله الغربيين ، فيحدثنا العينى[1] حديثا مستفيضا عن ذلك النضال فيقول « إن البابا غضب على الأنبرور وعامل خواصه الملازمين له على قتله وكانوا ثلاثة ، وقال : قد خرج الأنبرور عن دين النصرانية ومال إلى المسلمين فاقتلوه ، وخذوا بلاده لكم ، وأقطع كل واحد مملكة ، فأعطى واحدا صقلية ، والآخر تصقانة ، والآخر بولية ، وهذه ممالك الأنبرور . وكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الأنبرور فعمد إلى مملوك له فجعله فى مكانه على التخت ، وأظهر أنه قد شرب دواء ، وأرسل إلى الثلاثة فجاءوا والمملوك نائم على التخت فظنوه الأنبرور ؛ وقد اختفى الأنبرور فى مجلس ومعه مائة فارس ، فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه فخرج عليهم الأنبرور فذبحهم بيده وسلخهم وحشا جلودهم تبنا وعلقهم على باب القصر ، وبلغ الخبر البابا

---

(١) العينى : عقد الجمان ، ص ١٩٩ .

فبعث إلى قتاله جيشاً والخلف واقع بينهم ، وهذا الأنبرور هو الذى أعطاه الملك الكامل القدس » ، وإذا كان القرن الثالث عشر ذا أثر بارز فى التاريخ العام ، فإن من أبرز معالمه التى تميزه عن غيره من القرون السابقة له أو اللاحقة به أنه القرن الذى تبلور فيه النضال بين الإمبراطورية والبابوية . وطرفا هذا النزاع هما البابا إنوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى .

والواقع أن فردريك الثانى كان أمة وحده من حيث تنوع الثقافة التى تملكت ناصيتها ، واللغات التى ألمّ بها ، والفنون الحربية الجديدة التى ابتدعها ومارسها ، وكان نسيج وحده فى تفكيره الحر مما أغضب بطبيعة الحال رجال الدين عامة لا سيما البابا ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان قريبا إلى قلوب رعيته خصوصا أهل صقلية الذين رأوا فى حكومته نوعا من المثالية معدوما فى تلك القرون الوسيطة ، والواقع أننا نظلمه إذا قلنا إنه أراد التحرر من سلطان الكنيسة ، ذلك لأننا نراه يؤيدها تمام التأييد فى القضاء على حركات الهرطقة والإلحاد ، على أنه كان يرى ألا تتجاوز الكنيسة هذا المدى فتتدخل فى الشئون السياسية وتصريف أمور الدولة ، وفصلُ الدين عن الدولة فى الغرب أمر يسير ، لكنّ الذى ليس باليسير هو تدخل كل منهما فى شئون الآخر مما يترتب عليه اختلال سير دولاب الأعمال .
ولقد بدأ فردريك صراعه مع الكنيسة زمن البابا جريجورى التاسع

الذى جاهر الإمبراطور بالعداء ، وأى أمر أدعى للعداء أكثر من أن يصدر ضده قرار الحرمان سنة ١٢٢٧ لعدم اشتراكه فى الحرب الصليبية يومذاك ، على أن فردريك الثانى حاول مداراة البابا بعقد معاهدة معه تعرف بمعاهدة « سان جرمانو » سنة ١٢٣٠ ، تعهد فيها برد أملاك الكنيسة التى استولت عليها الحكومة إلى الكنيسة صاحبتها الأصلية . على أن تلك الموادعة بين صاحبى السلطان الروحى والزمنى مالبثت أن فصمت عراها حين حارب فردريك أهل لمبارديا عام ١٢٣٦م رغم تدخل البابا لفض النزاع ، ثم عاد النزاع بين البابا والإمبراطور من جديد بعد ذلك بسنتين اثنتين فقط ، والسبب الحقيقى هو استيلاء فردريك على « سردينيا » وتتويجه ابنه Enzio ملكا عليها رغم تبعيتها للبابا .

على أن جريجورى التاسع ما لبث أن مات فخلفه البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٤٣ ، لكن النزاع شجب بين الاثنين ففر إنوسنت من رومة إلى جنوة ، خالعا على ذلك الفرار صفة الهروب من بطش فردريك ، وسرعان ما عقد البابا مجمعا عرف بجمع ليون ١٢٤٥ قرر فيه تكفير الإمبراطور بحجة مصادقته لسلطانى مصر الكامل والصالح نجم الدين أيوب ، وبادر فأصدر قرار الحرمان ضده (١) .

فى مثل هذه الظروف كان نهوض لويس التاسع بالدعوة للحرب التى اتخذت لها رقما معينا حاملا البابا إنوسنت الرابع على المساهمة

(١) Cambridge Medieval Hist. Vol. V, P. 157 seq. ، العينى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

فى الدعوة لها هو الآخر ، ولا شك أنه كان مدفوعا فى ذلك بعاطفته الدينية ومركزه الدينى ، وكان ينعت لويس « بأعز أولادى » ، والواقع أن جميع الظروف كانت تحمل البابا على تعضيد لويس فى حركته ، وشتان بين هذا الملك التقى وبين معاصره الإمبراطور فردريك الثانى الذى أصدر البابا ضده قرار الحرمان ثم قال « لقد أديت واجبى ، وليفصل الله ما يريد » ، وهى جملة تدل على أنه كان يدرك أن الإمبراطور قد لا يعبأ بهذه الخطوة الجريئة ذات الأثر المعروف عند المهتمين بدراسة تاريخ العصور الوسطى . على أنه لا يستبعد أن يكون البابا إنوسنت الرابع قد أيد لويس التاسع خوفا على نفوذه من أن يغطى عليه نفوذ رجل دنيوى كلويس ، رغم تألف القوم على نعته بالقديس ، واعتباره « ابن البابا فى الرب » ، وتظهر مكانة لويس عند البابا حين قبل الأخير ما عرضه عليه الملك من أن يجب خطايا جميع الذين ارتكبوا المآثم من قبل ثم انخرطوا تحت لوائه فى ذهابه إلى الشرق [١] .

لم يكن فى استطاعة البابا — رضى أم أبى — إلا أن يبارك هذه الحركة ، وإلا أن يكون ثناؤه عظيما على قائدها ومحركها وباعث القوم على امتشاق الحسام فيها ، وأكبرَ فى لويس همة حملته على العزم الأكيد على الخروج إلى الشرق ومغادرة مملكته وإنابة الملكة لوالدة

(١) Migne: Nouvelle Ency. Théol., arts, Croisades.

مكانه تدبّر شئونها بمعاونة كونت بواتو الذى لحق به بعد سنة من مغادرة الصليبيين لفرنسا .

٤

عقد لويس فى مدينة باريس مجمعا حضره كبار رجال مملكته وباروناتها وأشرافها ونبلاؤها ورجال الدين فيها ، كما حضره المندوب البابوى Odon de Ghateauroux ، وفى هذا المؤتمر تناسى الجميع ما بين بعضهم والبعض الآخر من الحزازات الشخصية ، واتجهت أهواؤهم وعواطفهم نحو السعى للهدف الذى يرمى إليه مليكهم ، ومع أن الملك القديس استطاع تقريب وجهات النظر المختلفة إلا أنه عجز عن أن يزيل ما فى نفس البابا على فردريك الثانى . ومهما يكن الأمر فقد أقسم المقيمون من كبار رجال المملكة والمسافرون بصحبة الملك أغلظ الإيمان والمواثيق بمراعاة حقوقه ، وعدم التفكير فى الوثوب على عرشه أثناء تغيبه عن فرنسا ، وما كانت به حاجة إلى مثل هذا اليمين لاسيما وهو يدرك مقدار تعلق شعبه به ، كذلك وقف البابا أيضا إلى جانب لويس مكبرا الهمة التى حملته على النهوض بالحملة الصليبية السابعة التى جعلت وجهتها مصر ، علما منها بأنها إذا أزالتها من الميدان لم تعد تخشى وقوفا جديا ما فى سبيلها لاحتلال الشرق العربى .

على أن السياسة الأوربية لم تكن تنظر إلى مشروع لويس على

مصر بعين الرضا ، لوجود ارتباطات ومصالح معينة لبعض دول أوربة حملتها على اعتبار الحملة خطرا على مصالحها الذاتية فى الشرق، وطبيعي أن تكون العوامل التى تدعو الدول الأوربية لسلوك هذا الاتجاه عوامل سياسية وتجارية ، وإذا كانت البابوية — كما رأينا — قد حبذت خطة لويس فى مهاجمة مصر فإنها كانت تخاف فى الوقت ذاته من ازدياد نفوذ الملك ، مما قد ترى فيه الكنيسة تهديدا لسلطانها ، وليس من المستبعد أن يتخذ صورة عملية فيما بعد إذا تأزمت الأمور وتعقدت المشكلات بين القوتين الروحية والزمنية .

والواقع أن أوربة كانت تجتاز دورا عصيبا ، ففى ألمانيا حرب أهلية بين مختلف الأمراء الذين تنازعتهم الأهواء المتباينة ، لا سيما بعد ذلك الموقف الذى وقفه كل من الإمبراطور فردريك الثانى والبابا إنوسنت الرابع من الآخر ، ولم تكن الحال الداخلية فى إيطاليا أحسن مما هى عليه فى ألمانيا .

أما أهم القوات الزمنية التى احتكت سياسيا بلويس التاسع بشأن حملته الصليبية على مصر فقوتان هما : الإمبراطورية الألمانية وجمهورية البندقية ، ولكل منهما مصالح خاصة تملى عليها أن تقف موقفا معينا من إنهاض الحملة ، بل إن هذه المصالح ذاتها كانت تحملها على عرقلة الفرنسيين فى وصولهم إلى مصر ، ولم تكن إحداهما ترضى بانتصار الفرنجة على المصريين .

أما سياسة الإمبراطور الألمانى فكانت ذات شقين يخالف كل منهما الآخر تمام المخالفة ، أحدهما يقتضيه معاونة فرنسا ومساعدتها بالمال والجند باعتباره حامى المسيحية فى الغرب ، وليس أدل على هذه الصفة الدالة على رعايته للصالح الكنسى فى أوربة واعتباره كبير رجال النصرانية بما جاء فى بعض المصادر العربية [١] من أنه « . . . قيصر المعظم . . حافظ بيت المقدس ، معز إمام رومية ، مالك ملوك النصرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قائد الجيوش الصليبية » لذلك كان لزاما عليه — وهذه ألقابه والحملة حملة صليبية — أن يبذل العون للويس التاسع ، وهذا الشق من سياسته الخارجية تمليه عليه أوضاعه الخاصة فى القارة الأوربية — موطن الحضارة المسيحية — وتمليه عليه مكانته فى نظر سكانها النصارى ، أو كما يجب أن تكون نظرة المسيحيين إليه فى أوربة ، هذا مع أن كثيرا من المسيحيين كانوا يعدونه أميل للإسلام منه إلى النصرانية وأنه كان يؤثر القرآن على الإنجيل [٢] .

على أن الإمبراطور كان فى الوقت ذاته يخفى فى قرارة نفسه الشق الآخر من سياسته التى لا يستطيع الجهر بها وتنفيذها صراحة وعلانية ، وهى سياسة ترمى إلى عرقلة الحملة الفرنسية الصليبية ، فلا عجب إذا ترامت أخبارها إلى الملك الصالح يوما بعد يوم ، وكان ترامبها من ناحية

(١) العينى : عقد الجمان ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) العينى : عقد الجمان ، ص ١٩٩ .

الإمبراطور ذاته . إذ كان مصافياً له كما كان مصافيا للملك الكامل من قبله ، وكانت الأخبار تتواتر للسلطان من جهة الإمبراطور وملك بلاد الأنبردية والبولية ،[1] كما يقرر أحد المؤرخين المسلمين كحقيقة مسلم بها وأمر مقطوع به . ولعل مما حمل الإمبراطور على تمنى الفشل للحملة الصليبية رفض البابا العفو عنه رغم تكرار لويس التماس الرجاء منه ، وكذلك ما أراد البابا أن يفعله معه حيث اتفق مع جماعة من المخاطرين على الفتك به ، ولم ينقذه من الموت المحقق سوى ترامى الأخبار إليه سرا ، ونجاحه فى إفشال تلك المحاولة وموقفه العدائى منه فى كثير من الحالات .

أما البندقية فكانت تتمتع بالصدارة بين الجمهوريات الإيطالية من الناحية التجارية ، مما اقتضاها أن تكون ذات بحرية قوية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . فكان لابد للويس التاسع فى إغارته على مصر من الاستعانة بهذه البحرية ، ليتأكد من نجاح حملته ، وليضمن تموين قواته إذا هى أرست على السواحل المصرية . وقد استعد لويس — قبل نهوض الحملة — بتوفير الذخيرة والمئونة لها ، فنراه يرسل قبل قيامها بسنة إلى قبرص جماعة من الرجال لشراء ما يحتاجه الجيش من الطعام أثناء مروره بالجزيرة . ولذلك يجد الجيش — حينما يعرج عليها فى سبتمبر ١٢٤٨م — شتى أنواع المئونة متوفرة

---

(٢) العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠١ .

بها ، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين [١] أن الملك أرسل قدامه جماعة بلغت جزيرة قبرص لجمع اللحوم والمواد المعيشية . فكانت ذخيرة أعانته على قضاء فترة بلغت تسعة أشهر . وانتهت فى مايو من العام التالى [٢] .

لم يتوان الملك القديس عن جس نبض البندقية بإنفاذه سفارة من لدنه ، فأبدى «الدوج» استعداده لمساعدة الحلة ، على أن الشروط التى قدمتها البندقية كفيلة بأن تظهر مقدار استجابتها لرغبة فرنسا ، وهى تدل دلالة صريحة قاطعة لكل شك على أن « الدوج » كان قد بالغ فى اشتراطاته ليكون الرفض من جانب فرنسا وليضمن بقاء علاقاته الودية مع سلاطين مصر ، مما يترتب عليه مساعدة التجار البنادقة وتيسير الأمور عليهم فى مصر أولا ، وفى بلاد الشرق الأدنى ثانيا ، وفى منطقة شرقى حوض البحر المتوسط ثالثا . أما هذه الشروط التى أرادت البندقية إملاءها على فرنسا فتتلخص فى إعفاء التجارة فى الشرق من جميع الضرائب والمكوس والالتزامات ، وكذلك الحال إزاء أحياء البنادقة وكنائسهم وحماماتهم وفنادقهم ، وأن يعم هناك استعمال المقاييس والأوزان والمكاييل البندقية [٣] ، وغير أنه يظهر أن البنادقة كانوا يؤثرون ما بيدهم على ما قد يحصلون عليه من

(1) Estoire d'Eracles, p. 436.
(2) Joinville's Memoirs, p. 168.
(3) Heyd: Hist. du Commerce du Levant ,t. I, p. 409.

هذا العهد »[1] ، على أننا لا نعرف الدواعى الحقيقية التى حملت سفراء فرنسا على قطع المفاوضات ، ولا يوجد بين الوثائق ما يميط اللثام عن حقيقة هذه المسألة ، لذلك لا نعجب إذا رأينا «هيد» — وهو من هو فى بحثه لهذه الناحية — يذهب للقول بأنه ربما كانت هناك شروط أخرى [2] ؛ وطبيعى أنه لا يعرف هو الآخر ما هى تلك الشروط التى أدت إلى فشل هذه المفاوضات ، مع العلم بأنه ربما كان فى قدرة الصليبيين أن تكون استفادتهم الشخصية أكبر من استفادة البنادقة ، فيما لو تم عقد هذه المعاهدة المرجوة وذلك الاتفاق المنشود بين الفريقين .

والواقع أن العلاقات كانت ودية بين جمهورية البندقية وبين مصر ، وأدركت الأولى مقدار خسارتها المادية إن هى انساقت مع التيار الصليبى ووقفت فى صف لويس التاسع واستجابت لدعوته . وأدركت البندقية أيضا أن هذه العهود الأوربية — من جانب فرنسا أو غيرها — قد يكون من الصعب الوفاء بها فى عصر امتاز بالروح الإقطاعية ، وبتطلع الأمراء المختلفين لتكوين إمارات لهم فى أى منطقة من المناطق .

على أن الملك لويس استطاع عقد اتفاقية بينه وبين مرسيليا ، كما استفاد من اتفاقية أخرى له مع جنوة ، حيث أمدته بعشرة آلاف رجل .

(1) Heyd: op. cit. loc.-cit.
(2) Ibid.

٥

خرجت الحملة فى عدد ضخم من المراكب والشوانى والبطس الحربية ، وكان قوام الجند من الفرنسيين الذين أخذوا ينضمون إلى مليكهم رغم أن بعضهم كان خارج حدود فرنسا ، كما انضم إلى الحملة فريق — وإن يكن صغيرا — من الإنجليز ، كذلك سافرت مع الملك لويس زوجته التى ضربت مثلا فى الصبر والثبات بعد أسره فى المنصورة فيما بعد[1] ، وقد أرسى الملك فى ليماسول جنوب قبرص فى النصف الثانى من سبتمبر ١٢٤٨ م ، وتلقاه هنرى ملك الجزيرة بالترحاب وشاركه شعبه ذلك الترحاب بالملك الفرنسى ، وكان لقاء طيبا دل على مكانة ملك فرنسا فى نفوس الشعوب المسيحية المختلفة ، حتى ولو لم تكن فرنسية ، وكان صيته قد بلغ الجميع فهبوا يستجلون طلعته ، فكان ندى الكف مبسوط اليد :

كف تخف مع الرياح سماحة ومهابة تزن الجبال وترجح
قد جاءت الغرر الغرائب طلعا كالشهب تثقب فى الدجى وتلوح

اطمأنت الحملة الفرنسية للإقامة فى قبرص ، وقضت فترة الشتاء والربيع بها ، حتى إذا آذنت بواكير الصيف بالقدوم تحركت هى الأخرى ميممة شطر مصر ، وهنا يتجلى لنا خطأ لويس ، ذلك أنه كان ينبغى عليه أن يهاجم بيت المقدس لا مصر ، ولكن يظهر لنا

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، وراجع أيضا Estoire de Eracles, p. 436

من تاريخه أنه لم تكن له سياسة مرسومة واضحة الخطوط والمعالم، بل الذى يتجلى لمطالع سيرته هو أنه كان يسير وفق ما تمليه عليه عاطفته أو ظروفه، دون مراعاة للخسائر التى قد يتكبدها من سلوكه المفاجىء لهذا الطريق .

على أن المدة الطويلة التى قضاها فى جزيرة قبرص هيأت للحملة فرصة من الراحة والاستجمام ، وأمدتها بالوفير من المئونة، مما شد من عزائم رجالها وأتاح لهم نهزة طيبة افترصوها فى الاتصال بجماعات شرقية مختلفة ، كما توافد الكثيرون من الفرنسيين من خارج فرنسا إلى الجزيرة ، وانضم إلى الملك أمراؤه وأتباعه الذين سبقهم فى السفر ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انضاف إلى اليزك[1] الصليبي كثير من المخاطرين والمغامرين الفرنسيين . والواقع أن انخراط أولئك المغامرين يحمل جرثومة الاستعمار الفرنسى فى الشرق وفتح نواحيه بحد السيف ، وأن فكرة هؤلاء المتطوعين الجدد لم تكن الجهاد ، بل لعل بعض الأمراء طمعوا أن تتهيأ لهم الفرصة لتكوين مستعمرات فى مصر وإحالتها إلى إقطاعيات وإمارات، كما فعل أسلافهم فى بلاد الشام وشمالى العراق منذ قرن ونصف قرن من الزمان قبل ذلك التاريخ ، وكان عدد هؤلاء الجدد كبيرا بدرجة لم يكن لويس يحلم بها ، وطمعوا أن يتيسر لهم الفتح — فى هذا العدد الجم الوافر —

(١) اليزك بتعبير ذلك العصر ، هو الجيش .

لا سيما والحملة على مصر نقصدها من الشمال ، ولم يكن يخفى على سلاطين مصر وأمرائها — فى العصور الوسطى — أهمية القوة البحرية المصرية فى دفع أية غارة عليها تأتيها من وراء البحار ، ذلك أن مصر لا يمكن أن تأمن على نفسها ولا تستطيع الاطمئنان من هذه الناحية — حيث تمتد شواطئها مسافة أميال طويلة على البحر الأبيض المتوسط — إلا إذا وثقت من وجود قوة بحرية ضخمة تستطيع حراسة ذلك الساحل ، ولم تغب تلك المسألة عن بال لويس التاسع ، فرأى أن يتجنب مزالق الخطر التى تردّى فيها من قبل الملك أمورى الأول أثناء صراعه مع نور الدين حول مصر[١]. واستفاد من أخطاء الصليبيين الماضية استفادة جزئية ، وذلك بأنه لم يفعل كما فعل أسلاف له من قبل ، فاتجه مباشرة إلى الشاطىء الشمالى ، وجعل وجهته مدينة دمياط .

كان لويس يتحرق شوقاً لمغادرة قبرص ومهاجمة مصر ، ولو ترك هو وشأنه لما أطال المكث بالجزيرة لولا إرغام الأشراف والأمراء وإلحاحهم عليه ، وفى هذه الأثناء وفدت عليه سفارة من التتار تحمل إليه استعداد الإيلخانات للمساهمة مع الفرنسيين فى تخليص بيت المقدس وفلسطين بأجمعها من أيدى المصريين ، والواقع أن التتار أخذوا منذ وقت غير قريب فى رسم الخطط الأولية لتكوين إمبراطورية قوية لهم تقوم حيث يقوم العالم المتحضر من غربى آسيا .

---

(١) حبشى : نور الدين والصليبيون ، الفصل الرابع .

ونعنى به بلاد العراق والشام ، وكان التتار يدركون أن الخلافة العباسية ضعيفة لا تستطيع الصمود أمام هجماتهم العنيفة ، وأنها لا بد من أن تسقط فى القريب على يدهم أو على يد سواهم ، أى أنها لا بد آيلة للانهيار عند أول ضربة خارجية تصيبها ، وكان التتار يدركون إلى جانب ذلك أيضاً أن هذا الدور — ونعنى به مهاجمة بغداد — لا يمكن أن تقوم به القاهرة بأى حال من الأحوال ، إذ أنه رغم قيام المماليك فى مصر إلا أنهم يعترفون ضمنيا بسيادة الخليفة الروحية ، وعلى ذلك رأى التتار أنهم أحق الناس بأن يرثوا تركة الخلافة العباسية ، لكنهم أدركوا فى الوقت ذاته أنه يستحيل على مصر أن تقف من هذا الهجوم المغولى على بغداد موقف المحايد والمشاهد ، بل لابد لها من أن تهب فى وجه المغول تدافعهم عساها تدفعهم عنها ، لذلك وجدوا أن أسلم الطرق لتحقيق مآربهم السياسية القادمة هى العمل يداً واحدة مع الصليبيين للقضاء على سلطة مصر فى الشرق . هذا إلى ما يجب أن نتذكره من أن عطف التتار على المسيحيين فى بلادهم واستوزارهم إياهم لم يكن خالصا لوجه الدين ، بل كان تكئة يتكئون عليها فيما بعد لتقريب الهوة التى تفصلهم عن الجماعات المسيحية الغربية .

على أية حال وفدت السفارة المغولية على لويس فأكرم لقاءها وأنزلها خير منزل ، ثم أنفذ معها جماعة من قبله طالت إقامتها بأرض

التتار مدة عامين ، وكان هدف الملك التقى — فى هذه الظروف الحربية — منصرفا إلى غير الاستعانة الحربية كما هو منتظر ممن هو فى مثل موقفه ، بل رمى إلى اجتذابهم إلى النصرانية ، فتقوى بهم روحيا وماديا (١) .

على أن لويس لم يشأ مهاجمة مصر قبل إخبار سلطانها ، وتلك طبيعة الفارس فى العصر الوسيط ، فقد بعث لويس إلى الملك الصالح كتابا جاء فيه قوله : « أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية ، وإنى غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الإيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك فى أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدى ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليك ، فيدك العليا ممتدة إلى ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا » .

ونحن نورد لك هذا الخطاب بأكمله كما ذكره المقريزى مؤرخ

(1) Joinville: Op. Cit., p. 168 — 169.

مصر الإسلامية — لا إيمانا منا به ، فإن فى قوله « إن كانت البلاد لك ... » نغمة تخالف لهجة الكتاب ، ومع ذلك فلا نستبعد أن الكتاب بصورته الراهنة وفى صيغته العربية هذه قد عملت فيه يد التحوير والتبديل والمحسنات البلاغية ما شاء لها ذوق أصحاب ديوان الرسائل .

وإذا ذهبنا للقول بأن الكتاب حقيقة — فى جوهره — من لويس فلا نستبعد أيضا أنه يحتوى على العناصر الأصلية أو لبعض تلك العناصر التى أراد لويس أن يذكرها لسلطان مصر وأن يحذره من مغبة الوقوف فى سبيله ، على أنه يبدو فيه — إذا أخذناه على علاته — إصرار ملك فرنسا على محاربة مصر ، ومحاربتها فى مصر ذاتها ، وهو موقن تمام اليقين أن تحقيق هدفه فى استخلاص بيت المقدس واسترداد فلسطين وجعلها تابعة لفرنسا إنما يكون عن طريق واحد هو التخلص من مصر التى يعدها العقبة الكئود أمامه ، ويتفق فى هذا الرأى المصدران العربى والافرنجى ، فالأول وهو ابن واصل [1] يرى أن استعادة الفرنج لبيت المقدس لا تتم إلا بعد امتلاك الديار المصرية ، والفرنجى — وهو جوانفيل [2] — يشير إلى أن كونت دارتوا — أخا الملك — أشار بالزحف على القاهرة دون غيرها من بلدان مصر

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ٣٠٠ ب .

(٢) Joinville : Op. Cit., p. 180–181.

كالإسكندرية ، ذلك — على حدّ قوله « إذا أردت أن تقتل الحية فهشم رأسها أولا » .

ومهما تكن المسألة فالذى يعنينا فى هذا المجال — وقد أشرنا إلى رسالة الملك — أن نشير إلى رد السلطان الصالح عليه ، فإنه لم يجزع ولم يخش تهديد لويس ، بل أجاب بكتاب شديد اللهجة من إنشاء القاضى بهاء الدين زهير يقول فيه « وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عيناك — أيها المغرور — حد سيوفنا ، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزلّ بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسىء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابى هذا فكن فيه على أول سورة النحل « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، وكن فيه على آخر سورة « ص » « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ونعود إلى قوله تبارك تعالى وهو أصدق القائلين « كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، وإلى قول الحكماء « إن الباغى له مصرع » وبغيك مصرعك وإلى البلاء يقلبك ، والسلام » . ولا نقف من هذا

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

الكتاب إلا عند الاستشهاد بالآية التي جعلها السلطان ختام كتابه وقفة قصيرة ، لنتساءل : « هل نكون على حق إذا استنبطنا منها أن جند مصر كان أقل عدداً ؟ وهل كان عند سلطان مصر نبأ بالكثرة العددية من المحاربين والمخاطرين الأجانب وأنهم يشأون جند مصر عدداً ؟ » إن الرد بالإيجاب على مثل هذا التساؤل قد يكون أقرب إلى الحقيقة ، وعلى ضوء هذه الإجابة قد نستطيع تفسير احتلال الصليبيين لدمياط في بداية الأمر دون أن يجدوا عسراً ، ولو رحنا نتلمس جوابا مقنعا في كتب التاريخ لأعيانا البحث دون جدوى ، ذلك أن المؤرخين عامة يسكتون عن تعليل هذا الانسحاب على الرغم من أن الصالح أيوب كان قد شحن دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة ، وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة [1] كما تقدم إلى أحدهم بالاهتمام بتجهيز الشواني وتسييرها إلى دمياط طبعا ، كذلك تقدم إلى الأمير فخر الدين بالنزول على جزيرة دمياط بالعساكر ، فنزل بها ؛ لكن ما كاد الفرنجة يصلون إليها حتى رحل الأمير عنها إلى البر الشرقي ، « وخرج أهل دمياط على وجوههم طول الليل ولم يبق بها أحـــد ، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشمون [2] » ولقد ترتب

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠١ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠١ .

على هذه الأنباء والأخبار المترامية إلى الملك الصالح من جانب الإمبراطور فردريك الثانى أن رأى استجابة الخليفة المستعصم بالله لما رآه من إزالة الجفوة التى بين الحلبيين ومصر ، فتقرّر الصلح بين الطرفين ، وذلك أن السلطان كان طريح الفراش حين بلغه خروج الحلبيين وعليهم شمس الدين لؤلؤ الأمينى ، فنازلوا حمص التى اضطر صاحبها الأشرف للإذعان للتسليم والصلح ، وتسلم الأمينى حمصا ، وأقام بها نوابا لصاحب حلب ، مما أغضب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأنفذ الجيوش إلى الشام لاستنقاذ حمص ، ودام الحصار حتى قدم البادرائى رسول الخليفة [1] . ولعل هذه الجفوة لم تكن خافية على لويس ، ولعلها هى السبب الذى كان يدعوه للإلحاح على من معه من القادة بالتعجيل لمهاجمة مصر ، وإن أغفل هذه الناحية جميع من كتبوا عن هذه الفترة سواء من الشرقيين أو الغربيين .

تأهب الملك التقى للزحف على مصر بحرا فى أسطول ضخم بلغ قرابة ألف وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة [2] ، كما انضم إليه أسطول لا بأس به من سفن البيازنة والجنوية، الذين هيأت لهم هذه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٦ ، أبو الفدا : المختصر ، ص ١٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، دائرة المعارف الإسلامية مدة « الملك الصالح » Stevenson : Crausaders in the East, p. 325. Mas Latrie : Histoire de l'Ile Chypre, t. I, p. 349.

(٢) Joinville : Op. Cit., p. 172.

الحملة فرصة وضع حدّ للنزاع التقليدى الناشب بينهما ، وهكذا استطاع لويس أن يزيل ما بين الفريقين من جفوة ، وإن تمكن الإزالة لمدة مؤقتة ، ذلك لأن المنافسة التجارية بينهما كانت على أشدها ، وما كان فى قدرة لويس أو غير لويس — من الملوك والبابوات — أن يخمد روح المنافسة التجارية بينهما .

٦

خرج لويس بهذه القوات الضخمة من السفن الجمة ، والجند الكثيف ، والعُدد ، والآلات الحربية ، والمئونة الوفيرة ، واتفق الرأى على الزحف على القاهرة ، وصرف النظر عن احتلال الاسكندرية ، رغم وجود فريق كان من رأيه أن يتجه الأسطول رأساً لعاصمة الوادى الثانية ، نظراً لوجود مرفأبها . ولكن الملك — ومن تابعه — رأوا وجوب مهاجمة دمياط والإسراع فى ذلك الهجوم حتى لا يتيح التأخر أو الإبطاء فرصة للماليك فى حشد قواهم وتركيز معداتهم الحربية ، وبذلك يعرقلون زحف الفرنسيين أو تأخير توغلهم فى البلاد المصرية . وخرجت هذه الرغبة إلى حيز التنفيذ ، وأقلعت المراكب والشوانى الفرنجية ، واستطاعت أن ترسو يوم الجمعة ٤ يونيو أمام دمياط [٢] التى لم تكن شديدة التحصين هذه المرة ، رغم

---

(١) التحديد الدقيق وارد فى Estoire de Eracles, p. 437 حيث ينص على اليوم ، راجع أيضاً Ibid, Note „B„ .

أنها كانت على أتم استعداد قبل ذلك بفترة قصيرة ، رغم أن القيادة كانت فى يد فخر الدين بن شيخ الشيوخ واستعانته بعرب كنانة ، ويذهب بعض المؤرخين المحدثين أمثال الأستاذ خروسيه [١] لتبرير ضعف الدفاع عن دمياط إلى طول مكث الملك لويس بقبرص ، مع أن المستعرض لهذه الحملة يمكن أن يعزو فى شيء من اليقين أو مايقرب من اليقين استطاعة مصر الاستعداد فى فترة تأخر الفرنسيين فى قبرص ، وعلى الرغم من أن الأشهر الثمانية التى قضاها لويس بالجزيرة كانت كافية لأن يستعد السلطان غاية الاستعداد ، إلا أن هذه الأشهر ذاتها جعلت الملك الصالح نجم الدين أيوب يحتار فى حقيقة مقصد لويس ، أتراه يقصد الشام أم مصر ؟ ومع ما قد يكون فى رأى الأستاذ جروسيه من وجاهة غير خافية إلا أنه تبرير لايجد ما يسنده أو يزكيه ، لاسيما فى وقت تعرف فيه البلاد ومن فى يدهم مقاليد الأمور أنهم معرضون للغزو الخارجى ، وكان الواجب يقتضيهم تكتل جميع القوى لدفع الخطر ، سواء أكان موجها إلى مصر ذاتها ، أم إلى ما بيدها من بلاد الشام ، على أن هناك شاهد عيان [٢] يحدث صادقا بما بذله الملك الصالح فى الاستعداد لملاقاة الفرنسيين ، « إذ أخذ فى جمع الذخائر ، والأقوات والزردخانات ، وآلات الحرب بدمياط ، واستكثر من ذلك ، بدرجة أن ما فيها كان يكفى المدينة مدة سنتين ،

(١) Gruosset : Hist. des Croisades, t. III, p. 440.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٦ ب — ٣٥٧ ا .

غير أن تراخى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فى الدفاع عنها وقطعه الجسر إلى الجانب الشرقى ثم إخلاءه إياه كان مدعاة للعجب» . وقد يمكننا أن نعلل هذا بأن ثقة السلطان به لم تكن قوية بالدرجة التى توجب تفويض الأمور إليه ، [١] ذلك أنه رغم بسالته كان يؤخذ عليه أن همته كانت ترقى إلى ما لا ينبغى عليه التفكير فيه ألا وهو الملك كما يذكر أحد معاصريه [٢] .

والتاريخ يحدثنا أن السلطان كان رجلا متناهيا فى الشدة ، يأخذ الجميع بالصغيرة والكبيرة ، والظاهر أنه كان رجلا فيه ميل للانتقام يؤثر رؤية الدم ، وكأنه من أتباع مذهب السادية الذى يقول به علماء النفس ، وهل يمكننا أن نفسر أن التوسل لديه « لا يُقبل ، والشفائع لديه لا تؤثر ، فلا يزداد بهذه الأمور التى تسل سخائم الصدور إلا انتقاما ، [٣] أقول هل يمكننا تفسير هذا إلا على ضوء النظرية النفسية السالفة ؟ . وحسبنا أن نشير فى عجل إلى أنه قتل أخاه الملك العادل ، ومات فى حبوسه ما ينيف على خمسة آلاف نفس [٤]. كما أنه فى مرة أخرى شنق كثيرا من الكنانيين ، لأنهم خرجوا من

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٣ ا .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ب .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٥ ، العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٤ — ٢٠٨ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

المدينة بغير إذن [١] . وذكر صاحب مرآة الزمان أنه لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يحزن لموته إلا القليل، مع ما كان فيه الناس من قصد الفرنج الديار المصرية واستيلائهم على قلعة منها ، ومع هذا فقد سُرَّ معظم الناس بموته حتى خواصـــه ، وإذا كنا قد سبقنا الحوادث ، فذكرنا موته فى هذا المجال، فإنما ذكرنا ذلك تأييداً لما نراه من أنَّ لشدة بتكه ، وثقل وطأته على الناس وخواصه، وكثرة تجبره، دخلا فى انسحاب الأمير فخر الدين بمن معه من أمام دمياط ، ولعله فعل ذلك قصدا لكى يزيد فى علة الملك الصالح فتقضى عليه فيستريح ويريح ، وهو الذى :

سجدت له حتى العيون مهابة أو ماتراها حين يقبل تطرق [٢]

ولقد كان ابن شيخ الشيوخ لايغضب لمولاه ولا يرد القوم عنه، يتجلىّ هذا فى موقف بعضهم حين أرادوا الفتك بالسلطان فحدثوا الأمير بالخبر ، ولولا يقينهم من أنه يعطف عليهم لما حدثوه ، فقد ذكر مترجموه أنه تغير على الأمير فخر الدين ، وخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان وهمّوا بقتله ، فأشار عليهم فخر الدين بالصبر حتى يتبين أمر السلطان ، قائلا لهم « اصبروا عليه ، فهو على

---

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٤) البيت من قصيدة طويلة للبهاء زهير ، ذكرها عنه أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٨ .

شفا ، فإن مات كانت الراحة منه ، وإلا فهو بين أيديكم ، [١]

***

على كل حال أرسى الملك لويس شوانيه ومراكبه أمام دمياط يوم السبت ٥ يونيو على اتفاق بين المؤرخين المسلمين والنصارى [٢]، فلما أمسى الليل ، رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من عساكر المسلمين ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط ، وخلى البر الغربي للأفرنج ، وسار ابن شيخ الشيوخ بالعسكر يريد أشموم طناح ، [٣] ، فلم يجد الصليبيون ما يمنعهم من اقتحام المدينة والاستيلاء عليها ، لاسيما بعد رحيل الأمير فخر الدين [٤] وما يتبع ذلك بطبيعة الحال من خوف أهلها واضطرابهم، مما حملهم على التسلل ليلا ومتابعة الجند إلى القاهرة ، وتجمعت الأهوال من ذعر الناس، وهزيمة العساكر المملوكية ،وارتداد عرب بنى كنانة ، وازدياد ما بيد الصليبيين من العتاد والسلاح ، وامتلاكهم الثغر وما حوى من متاع ، دون أن يصابوا فى كثير أو قليل من العدد والرجال [٥]، وإن يكن جوانفيل يذهب للقول بأن الأهالى عمدوا إلى إشعال النيران

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ، العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٥ ، وراجع أيضا Manus. de Rothelin, p. 589.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ص ١٢٦ ، Manus. de Rothelin, p. 159

(٤) Oman : Art of War in the Middle Ages, Vol. I, p. 341.

Joinville ·Op. Cit. Loc. Cit.

فى سوق المدينة حتى لا ينتفع الصليبيون بما فيه ، وهو يذكر هذا الحريق فى أسى ، إذ الظاهر أنه جاء على كل ما فى السوق من غالى المتاع والذخيرة ، يؤيد هذا ما جاء فى رسالة لأحد من شاهدوا الحملة ، حفظها لنا أحد المؤرخين الفرنجة [١] .

على أن الفرنجة وجدوا مايعوضهم عن ذلك فى بيوت الأهالى ، وما لبث الصليبيون أن شرعوا فى تثبيت رسومهم وشعائرهم فى البلد ، فبادروا إلى تحويل مسجده الجامع إلى كنيسة دشنوها للعذراء ، وفعلوا مثل هذا فى بقية مساجد المدينة ، ووهبوها لشتى القديسين والقديسات ، وهذا ما يفسر قول أحدهم فى رسالة له « إلى السيد نيكو لا هيرود ، حاجب ملك فرنسا : السلام عليكم والرحمة ، وبعد فأحب أن أفضى إليك بأن الملك والملكة وكونت دارتوا وكونت أنجو وعروسه والناس المباركين قد وصلوا إلى مدينة دمياط التى تحنن الرب بشفقته ورحمته فردها للنصرانية يوم الأحد » [٢] .

كذلك قاموا بتحصين أسوار المدينة وتشييد الأبراج للدفاع عنها إن فكر المصريون فى العودة لقتالهم بها ، وخوفاً من غارة يشنها عليهم أهل النواحى المجاورة وعربانها : الأمر الذى لاقى منه الفرنسيون الأمرين ، فقد ذكر بعضهم [٣] « أن الحرافشة كانوا يقدمون

---

(١) Estoire d'Eracles, p. 591.

(٢) Manus. de Rothelin, p. 568 — 569.

(٣) العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

إلى معسكر الفرنجة ويتخطفون منهم ، فلقوا منهم أذى عظيما ، أضف إلى ذلك كله أن الأمور كانت مضطربة فى مصر ذاتها ، فالسلطان كان منذ قليل يحارب أحد الخارجين عليه فى دمشق ، وهو لم يضع السلاح ولم يرفع الحصار عنها إلا مكرها ، وإن تظاهر باستجابة رجاء مَنْ طَلَبهُ أمر عنده ، ومن لا يستطيع ردا لرأى ارتآه ، كما أن السلطان هذا نفسه كان يشكو المرض ، ووقع اليأس من عافيته [١] .

كان من المنتظر فى هذا الوضع أن يُقَدِّر الفرنسيون العامل الزمنى ، إذ أن كل تريث وانتظار حيث هم يتيح للماليك أن يلموا شملهم المتفرق ، وأن يستفيقوا من الذهول الذى استولى عليهم من مهاجمة الحملة لمصر ، ويُمَكِّن الأهالى أيضا من التجرؤ عليهم ، كما كان عليهم أن يقدروا إلى جانب ذلك أيضا جغرافية الوجه البحرى ، أضف إلى هذا وجوب تقديرهم قرب وقت الفيضان عما يترتب عليه أحد أمرين ، إما المبادرة السريعة بالزحف على القاهرة ، وإما تأخير هذا الزحف بضعة أشهر حتى ينخفض منسوب مياه الفيضان وتجف الأراضى فيسهل إذ ذاك على الجيش الفرنسى اختراق البلاد دون مشقة كبرى ، وكان لكل من الأمرين صعوباته ، حيث اضطر الملك لويس رغم أنفه إلى التريث انتظاراً لمقدم أخيه كونت بواتيه بمن معه

---

(١) ابن واصل : مفرّج الكروب ، ورقة ٣٥٨ ا ، Oman : Art of War in the Middle Ages, Vol. I, p. 341.

من الرجال ، وما كان للحملة إلا أن تنتظر — وأنفها راغم — عودة هذا الفريق الكبير من المحاربين ، هذا بالإضافة إلى ما رآه الملك لويس من إجماع رأى الكثيرين من الأمراء والأشراف على اتّباع تلك الخطة ، والظاهر أن الملك ذاته لم يكن حريصا أشد الحرص على المبادرة إلى الخروج ، وربما كان مرجع ذلك رغبته فى توفير الراحة — وإن لم يعلن ذلك — لزوجته الملكة الشابة التى صحبته فى حملته هذه ، ويؤيد تلك الفكرة أنه عمد إلى إبقاء الملكة فى دمياط حين زحفه على القاهرة .

ومهما يكن الأمر فقد بقى الفرنسيون حيث هم ، وهكذا وجدت الحملة الصليبية نفسها فى راحة تفرضها عليها طبيعة البلاد الجغرافية ، مما كان ذا تأثير غير كريم فيما بعد فى رجالها ، إذ حملتهم الراحة والانتصار المبدئى الذى صادفوه فى دمياط وتوفُّرُ الأقوات لديهم ، واضطراب أمور المصريين، والإرجاف باشتداد العلة على السلطان، وتراجُعُ عرب بنى كنانة مع العسكر المنهزمين عن دمياط ، حمل ذلك كله الفرنسين على الانغمار فى شتى ضروب اللهو ، ولم يعد لهم همٌّ سوى إشباع أهوائهم وملأ بطونهم والعكوف على صنوف الملذات حتى الجسدية منها ، مما يعيبه عليهم مؤرخهم جوانفيل ويأخذه عليهم، بل ويعزو إليه ما سيصيبهم من الخسائر والهزائم فيما بعد حين

يشدون الرحال للزحف جنوبا ، ذلك الزحف الذى لم يجنوا منه إلا كل مشقة وخسران [١] .

والظاهر أن أخبار الفرنجة لم تخف على المصريين الذين اهتبلوا فرصة هذا التأخير وما يتيحه من التراخى المعنوى عند الصليبيين، وأخذوا — بطبيعة الحال — فى الاستعداد لصدّ العدو الدخيل ، وكانت المدة المنصرمة من يونيو (وهى زمن استيلائهم على دمياط) إلى شهر أكتوبر الذى حددوه لزحفهم على مصر والقاهرة كافية للاستعداد وإكمال التجهيزات الحربيـة المصرية ، وجاء كثير من « الرجالة والحرافشة والغزاة المطوعة، ومن سائر النواحى خلق كثير لا يقع عليهم الإحصاء ، وورد من العربان أمم كثيرة شرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم » [٢] ، ولم يشأ المماليك الانتظار فى القاهرة ، بل فكروا — وحسنا ما فعلوا — فى التقدم شمالا فى الدلتا وتعويق حركة المهاجمين بشتى الوسائل ، وهكذا تغير موقف أهل مصر من الدفاع إلى الهجوم ، ومعنى هذا أنهم أصبحوا فى وضع يخالف كل المخالفة الوضع الذى كانوا عليه فى بادىء الأمر .

٧

وجد المصريون خير مشجع لهم على الاستعداد لدفع العدو فى شخص سلطانهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى كان خير مُـوَجِّـه

(١) Manus. de Rothelin, 567.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٧ ب .

لهم ، رغم أن العلة كانت قد اشتدت به شدة ألزمته الفراش، وتكالبت عليه أنواع المرض المقعد ، من الناصور فى مأبضه ، والسل يهدم كيانه هدما ، كما وقعت الآكلة فى خده ونخذه من قبل [١] ، على أن النفوس الكبيرة لا يُقعِدها المرض ولا تؤمن بسلطان الأوصاب ، بل تسخر بها ولا تتطامن أمام قدرتها ، وإذا كانت النفوس كبارا كنفس السلطان الصالح تعبت فى مرادها الأجسام ، ولم تقدر العلل على النيل منها ، والملك نجم الدين كبير الهمة عالى الأطماع ، « وكانت نفسه تحدثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها ، وانتزاعها من يد ملوكها ، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق » [٢] ، وإن رجلا هذا شأنه وتلك أطماعه كفيل بأن يجعل النصر يسير فى ركابه أنَّى سار :

تضجُّ القنا منه لما جشم القنا	وتضرع منه الخيل والليل والسرى
هو الرمح فاطعن كيف شئت بصدره	فلن يسأم الهيجا ولن يتكسرا
لقد أنجبت منه الكتائب مدرهاً	سريع الخطى للصالحات ميسرا
وصرَّف منه الملك ماشاء صارما	وسهما وخَطّيًّا ودرعا ومغفرا

والواقع أنه جدَّد شباب الدَّولة الأيوبية ، حتى ليقول أبو المحاسن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٥٨ — ١٣٥٩ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ص١٣٥٩ .

عنه [1] وفى الجملة هو عندى أعظم ملوك بنى أيوب ، وأجلهم وأحسنهم رأيا ، وتدبيرا ومهابه وشجاعة وسؤددا بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب » ، هذا هو رأى الجميع فى الصالح نجم الدين ، ومنه نستدل على أن شدة بطشه وفتكه لم تمنع المؤرخين من الثناء على همته وتقدير أطماعه وإكبارها ، وعمله على تحقيق السيادة المصرية، وإرساءِ أسسها على قوائم ثابتة الدعائم [2] .

لذلك لانعجب إذا رأيناه — وهو على ما ذكرنا من المرض المقعد — يأبى إلاّ أن يساهم بنفسه فى قتال الصليبيين ، ويأمر بالاستعداد لصدهم ، ولاشك أن مثل هذا الموقف من رجل هذه حالة كفيل — فى مثـــل ذلك الوقت — بتقوية الروح المعنوية فى نفوس المصريين الذين كانوا على الدوام على أتم الاستعداد للتضحية بأنفسهم وأموالهم فى سبيل حفظ البلد سليماً من امتلاك العدو إياه ، لذلك ينكر الملك الصالح نجم الدين أيوب على نفسه ما بها من الأوصاب ، ويغالب ما به من العلل ، فيأمر بأن تضرب الأبواق للرحيل إلى المنصورة ، ففعل المسئولون ما أمروا به ، وما علم المغير أنه — كما قال أحد الشعراء : —

قريب إلى المولى بعيد بعزه   على مغمز الأعداء أن يتسهلا

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

إذا طلب الأعداءَ أنفذ جحفلا   لمِاماً من الإقبال يتبع جحفلا

أما هو ذاته فلم يقعده مرضه الملح عن المساهمة بنفسه فى القتال والإشراف عليه ، فحمل فى حراقة ، وأنزل بقصر المنصورة ليكون على كثب من القتال ، وليشجع مرآه العزائم وإن تكن فى غير حاجة إلى ما يشجعها ، لما انطوت عليه نفوس المصريين من الرغبة الصادقة فى الجهاد ، ومباغتة العدو قبل أن يباغتهم ، وتأديبه على تلك الحركة الفاجرة التى دنس بها أرض الوادى ، والتى لم يكن ثم مبرر للقيام بها . ومن ذلك نرى أن الفرنسيين فى القرن الثالث عشر قدحوا زناداً رُدَّ إليهم فى صدورهم بل وفى كرامتهم كجيش غاز أراد أن يطأ أرض مصر وفلسطين ويستبيحها للمغيرين الأوربيين . على أن الذى يسترعى النظر ويستحق الالتفات وينال الإعجاب هو ما انطوى عليه الشعب المصرى على الدوام من وعى قوى كامن ، يخيل لرائيه من الخارج أنه فاقد إياه ، لكنه إذا جد الجد وتعقدت الأمور انكشفت خبيئة نفسه الكريمة ، والشعوب كالمعادن لا يعرف كريمها ، ولا تدرك قوتها إلا إذا صهرتها المحن ، فأما الضعيف منها فيتلاشى ، وأما القوى منها فيثبت على الدهر ويطاول الزمن ويكوّن من الحضارة ما يشهد برسوخ قدمه ، وليس أدل على طبيعة هذا الشعب الطيبة من أنه خرج عن بكرة أبيه غداة مقدم لويس تجاه المنصورة لدفعه هو وجنده ومعداته ، فيشهد المؤرخون أن قد جاءت والغزاة

والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد »، وهذه العبارة من مؤرخ عرف بالدقة لفظا وتبيان الحقيقة تشهد باشتراك العامة إلى جانب قوات الحكومة النظامية، وهم مدفوعون إلى ذلك النضال بدوافع شريفة زكية، خالصة لوجه الله والوطن، على أن هناك إلى جانب هذه المسألة مسألة أخرى تستحق النظر هي وقوف أهل البلاد ومن انضم إليهم من العرب جنبا إلى جنب، وهكذا كان في مصر منذ سبعة قرون تماما وحدة عربية مصرية، لم تدع إليها الرسميات، ولكنها وجدت ونمت نظراً لأن طبيعة الحياة تقتضي التعاون، وتشعر بروح الأخوة بين المصريين والعرب، ولقد ساهم أولئك العرب بنصيب غير منكور في الحرب ضد الحملة الفرنسية، وتكاتفت القوى المختلفة لحماية عسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من الخلف، بل إن هذه القوات غير النظامية كان لها فضل غير مجحود فيما لاقاه الصليبيون من الهزيمة النكراء والقتل المروّع في حواري المنصورة وشوارعها.

على أية حال تكاتفت قوى الحكومة مع قوى الشعب، وأنفذ السلطان المراكب الحربية من العاصمة تحمل المئونة والذخيرة والعتاد والرجال والمجاهدين والغزاة إلى المنصورة، وكان اختيار هذه المدينة على وجه الخصوص براعة استهلال من المصريين، وذلك لأنها من المواقع الحصينة، وقلعة مصر في الدفاع وتحطيم المغير القادم من الشمال.

أما لويس التاسع فقد تحرك هو الآخر للزحف بعد أن ترك دمياط في حراسة قوية ، وبعد أن اطمأن خاطره إلى حصانة أسوار المدينة وأبراجها ، وإلى أن المصريين لا يستطيعون — إن أرادوا — مهاجمتها مهاجمة جدية ، وإنما قد لا يعدو الأمر أن يكون مناوشات بعيدة عن المركز ، لذلك غادر المدينة بجيشه العظيم ، ومن حوله إخوته وبارونانه وأشراف المملكة الفرنسية والأمراء الإقطاعيون والفرسان التابعون لهم ، وعسكرت هذه القوات الضخمة على الشاطىء الغربي فى المكان الواقع بين رأس البر وكفر البطيخ . على أن الأمر لم يخل من مناوشات فردية كبدت المعسكر الفرنسي خسائر غير طفيفة ، إذ أخذ أفراد من المصريين والعرب يتسللون ليلا إلى معسكر الصليبيين ويقتحمونه سرا دون أن يدرى بهم أحد ما ، ثم يكبسون بعض الجند فيقتلونهم ، أو يأخذون بعضهم أسرى إلى القاهرة [١] ، وكان الفرنجة يجدون من حراشفة المسلمين أذى كبيرا ، [٢] دون أن يستطيع الفرنسيون أن ينالوا منهم شيئا ، ويعلل «جوانفيل» مرجع قدرة هؤلاء الأفراد المغيرين إلى أن عادة الحراس الفرنسيين جرت بأن يركبوا الجياد ويمضوا إلى حراسة المعسكر ، فكان المصريون ينتظرون حتى تهدأ الحركة

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٥ب — ٣٦٦أ .

وينام الجند ، ويبتعد وقع حوافر الخيول فينطلقون مغيرين على الخيم ، مما حمل الملك لويس فى النهاية على جعل الحراس مشاة [١] ، ومهما يكن الأمر فإن المسلمين قد استطاعوا إصابة عدد لا بأس به من الأسرى يقدره المقريزى [٢] بمائة وتسعين أسيرا .

على أن الصليبيين — وقد عسكروا على الشاطىء الغربى لفرع دمياط — ارتكبوا خطأ جسيما [٣] فيه دمارهم ، كما ارتكبه من قبل جان برين ، ويقول كاتب حديث [٤] « لا يملك الإنسان إلا أن يتعجب من جرأة لويس على اختيار نفس الطريق الذى شقه برين من قبله » ، فقد كان فى قدرة المصريين يومئذ أن يحولوا بين المغير وبين التوغل جنوبا بقطع السدود وغمر أرض الدلتا بالمياه الغزيرة دون أن يخسروا شيئا ، أولا تكون خسارتهم شيئا مذكورا .

اجتمع مجلس المشورة الملكى وضم الرجال البارزين فى الجيش والأسطول وكذلك كبار الأمراء والكونتات والبارونات ومقدمى الفرسان من الاسبتارية والداوية ، وكان التئام هذا المجلس فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر ١٢٤٩ م ، وهنا ظهرت مسألة ثار حولها الجدل العنيف : هى هل تتجه الحملة شطر القاهرة أم الإسكندرية ؟ .

---

(١) Joinville's Memoire, p. 196 — 197.

(٢) المقريزى : شرحه .

(٣) Davis : The Invasion of Egypt, p. 25.

(٤) Oman : Art of war in the Middle Ages, Vol. I ,p. 267.

وطبيعي أن تختلف الآراء ، وأن يكون رجال الأسطول والبحرية من المؤيدين للزحف على الإسكندرية ، وحجة هذا الفريق أنه لا يُؤمَن جانب أهل مصر إذا استولى الجيش على وطنهم ، ولا ينبغي الاطمئنان إليهم حتى ولو أظهروا غاية المودة والخضوع ، والتزموا جانب السكينة والهدوء ، أضف إلى هذا أنه باستيلاء الفرنسيين على الساحل يكونون قد ضمنوا سلامة الساحل المصري الشمالى ، ووثقوا باطمئنان السفن القادمة إليهم من فرنسا وغيرها من البلدان الأوربية ، والتى تحمل إليهم ما قد يحتاجون إليه من الإمدادات والذخائر والعُدد والرجال ، ولا شك أن لهذا الرأى وجاهته وقيمته ، بل إنه فى نظرنا كان أجدى على الفرنسيين من التحرك إلى الجنوب فى منطقة الدلتا ذات الأرض اللينة الرخوة من جراء الفيضان ، والتى تكثر بها فروع النيل وقنواته ، حتى لكأنها شبكة الصائد ، مما لم يتعوده الصليبيون . وأيّد هذا الفكرة رجل له خبرة سالفة بالشرق وحروبه ذلك هو Pierre Mauclére كونت بريتانى ، بيد أنه وجد مقاومة شديدة من جانب أخى الملك كونت دارتوا الذى سعى إلى حتفه بظلفه ، وصمم على وجوب مهاجمة القاهرة دون الإسكندرية خاصة ، ودون بقية مدن الدلتا عامة ، وكان فى كونت دارتوا اندفاع وتهور وطيش ، وهكذا اجتمعت هذه الصفات لتردى به إلى هلكه ودماره ، واحتجبت الفطانة وحسن إدراك الأمور والتقدير

الصحيح لخواتيم كان من الواجب عليه وعلى أمثاله أن يعرفوها ويقدروها تمام التقدير ، ومن على زلقا عن غرة زلت به القدم ، وكان أولى به أن يقدر لرجله موضعها قبل الخطو ليكون على بينة من أمره وأمر من معه من المحاربين الفرنسيين ، وليس بنافع الكونت أن ينهض فيما بعد من يدافع عنه ويبرر موقفه بأنه لم يكن يعرف طبيعة الأرض المصرية ، ولو كان هناك عند الفرنسيين اقتداء بالماضى وتَجَنُّبُ أخطائه لأدركوا فشل مثل هذه الحملة قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، أعنى سنة ١٢٢١م ، لكن أخا الظلماء أعشى بالليل ، وقد حسبوا أن النصر موانيهم على طرف التمام استهانة وجهلا ، ومورد الجهل وبىء المنهل .

وحسبنا أن نعرف أن من انضم إلى الكونت فى تأييد هذا الرأى الفطير البطرك روبرت ، ولم يكن له أى علم بالشئون الحربية ، ولكنه أبى إلا أن يزج بنفسه فى معترك ليس هو من أقطابه . ومدّعى العلم بالكثرة حرى بأن يلق مصرعه وشيكا ، ومن لم يعرف الشر ويقدره قبل الخير كان أجدر به أن يتردى فيه ويجر ذويه إلى مافيه ضرهم وهلاكهم [١] .

على أننا نستطيع أن نتلمس علة نبرر بها — فى هذا المجال — تأييد كونت دارتوا لفكرة الهجوم على القاهرة دون الإسكندرية ،

(١) Lavisse : Histoire de France, p. 336.

وأكبر الظن أنه فكر في هذا الهجوم لما علم برغبة الملك الصالح في الجنوح إلى السلم ، وقد خلت المراجع من الإشارة إلى هذه الحركة من جانب سلطان مصر ، على أن شاهد عيان صليبي قد أوردها بالتفصيل ، ذلك هو « ماتيوس باريس »[1] ، الذي يزعم — إن صدقا أو كذباً — أن سلطان مصر — وقد ألحت عليه العلة وخاف موافاة أجله قبل أن يدفع الصليبيين عن البلاد — تقدم إليهم يسألهم أن يُرجعوا إليه دمياط ، لقاء تنازله لهم عن عسقلان وبيت المقدس وطبرية ، وكان الملك الصالح قد استرد عسقلان من الفرنجة الذين تسلموها من عمه الصالح اسماعيل قبل ذلك بعام واحد تقريباً[2] ، كما أن الملك الناصر داود كان قد استرد القدس من قبل[3] ، وليس من المستبعد أن يكون الملك الصالح نجم الدين

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades, (d'apres Matthiew Paris).

(٢) راجع كتاب الروضتين لأبي شامة ، ص ١٩٤ ؛ عقد الجمان للعيني ، ص ٢٠٠ ، المختصر لأبي الفداء ، ص ١٢٥ ، وكذلك Lane-Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 230 — 231.

(٣) كانت القدس في يد الفرنجة منذ أن سلمها الكامل إلى الإمبراطور فردريك الثاني ، وفي استرداده يقول جمال الدين بن مطروح المصري :

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا بالكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا

راجع ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٢٣ ب ، والعيني : عقد الجمان ، ص ١٩٧ .

أيوب قد تقدم بهذه العروض أو ما يشابهها ، وربما حمله على ذلك ماراه من موقف الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وخوفه من تسرعه فيما ارتكبه هو ذاته من قتل الكثيرين من زعماء بنى كنانة عقب ارتدادهم عن دمياط ، وخاف أن تحدثهم نفوسهم — وقد حدثتهم فعلا — بالوثوب عليه والفتك به . أضف إلى هذا عدم وجود ولده تورانشاه بمصر يومذاك ، وتغيبه عنها فى حصن كيفا .

جرت هذه الأحداث جميعها ولا يزال الصليبيون قرب دمياط ، وتبين لهم خطأ مسلكهم فى اتباع هذا الطريق فى الزحف على مصر ، على أنهم ما كادوا يتحركون إلى القاهرة حتى وافاهم نعى السلطان الصالح نجم الدين متأثراً بجراحه ، وبالسل الذى نخر جسمه رغم صغر سنه ومتانة بنيته ، ولم يحل قصر حياته عن نهوضه بالجسيم من الأعمال :

مد يداً إلى المنى فنالها	والعمر ما مد له السنينا
ترى الوقار والحلوم زنة	معتدلا فى خلقه موزونا
لم يفترش عجزاً فى الرأى ولا	ساور فى الأمر الهوى الظنينا

كان موت السلطان حرياً بأن يضعف العزائم ويفل من غرب الهمم القوية الناهضة لقتال الفرنسيين ، على أن مشاهد القوة يومذاك انطوت فى مسوح الضعف ، ولو حكم الظاهر يومئذ لقضى بفشل المصريين وضمان النصر الأكيد للصليبيين ، ذلك أنه لم يكن ثم أحد ما

من أدنى الذكور إلى الملك الصالح قادراً على أن يتولى الأمر من بعده ، لاسيما وابنه تورانشاه متغيب عن البلاد فى حصن كيفا ، بل إن تورانشاه هذا ذاته كان غير مرضى عنه من أبيه ، لما هو عليه من الهرج [1] والاضطراب ، كما أن هناك من الكتاب من يذكر أن السلطان قال لأحد أمرائه وهو الأمير حسام الدين بن أبى على : إذا مت لاتسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ليرى فيها رأيه [2]. فإن صحت نسبة هذا القول إلى السلطان الراحل فهى دلالة صريحة على أنه كان غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى تولى تورانشاه الحكم ، أضف إلى هذا أنه لم يكن ثمة أحد من أدنى الناس إليه وأمسهم به رحماً سوى زوجه شجر الدر ، وكان المعتقد أن مثلها لا تستطيع تدبير شئون الحكم لو مات الملك أيوب ، على أنها برهنت على أنها إمرأة قادرة ، عبقرية التفكير والإرادة ، حازمة فى تصريفها للأمور بما يتلاءم وخير الدولة المصرية والصالح العام [3] .

نظرت شجر الدر فيما حولها بعد موت زوجها فلم تجد سوى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فدعته ، وأفضت إليه بنبأ موت السلطان الصالح نجم الدين ، وطلبت إليه أن يبقى حيث هو فى قيادته

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ٣٦٠ ب .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ٣٦٣ ا .

(٣) Davis : The Invasion of Egypt, p. 20.

للجيش ، وبعثت فى طلب الطواشى جمال الدين محسن الذى كان « أقرب الناس إلى السلطان ، وإليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته[١] » ، وأوقفته على جلية الخبر . وهكذا انعقد فى القصر السلطانى مجلس ثلاثى قوامه زوجة الصالح أيوب وقائده وطواشيه ، واتفقوا على أن يكتموا خبر موت السلطان عن الجميع ،وأن يبعثوا برسول إلى تورانشاه فى حصن كيفا يفضى إليه بالخبر ، ويحثه على الإسراع بالقدوم ، وقدفعلت ذلك شجرة الدر على الرغم من أن تورانشاه لم يكن ولدها . ودلت الأميرة بهذا العمل على استعدادها التام للتضحية فى سبيل مصر وفى سبيل حفظ المُلك سليما من وثوب المتمردين والطامعين ، الذين لم يكن يردعهم عن ذلك الوثوب سوى بقاء السلطان حيا ، وشدة سطوته وبأسه ، ولعلها كانت تخشى على وجه الخصوص جماعة المماليك والأكراد الذين أزالهم عن القوة والسلطان ، عما حمله من قبل على الإكثار من المماليك الخاصة الذين أسكنهم منيل الروضة ، وسماهم « بالبحرية[٢] » .

على أية حال ظل الأمر مكتوما فترة قصيرة ، استطاع الثلاثة خلالها أن يأخذوا البيعة للسلطان الجديد ، دون أن يداخل الناس ريب فى حياة السلطان ، وإنما فسروا احتجابه عنهم باشتداد العلة

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٤٢—٣٤٣ .

(٢) Lane-Poole : Hist of Egypt inthe Middle Ages, p.232—233.

عليه وحاجته الماسة إلى الاعتكاف ، أضف إلى هذا أن الكتب والمراسيم السلطانية كانت تخرج من القصر وعليها توقيع السلطان ؛ والفضل فى ذلك راجع إلى براعة شجر الدر التى كانت تتقن غاية الإتقان تقليد خط زوجها تقليداً لم يدع للشك سبيلا فى أن يتطرق إلى أحدما فى صحة هذه التواقيع[1] ، وإن يكن ابن واصل — معاصر هذه الأحداث وشاهدها ومؤرخها — يذكر أنه لم تجز عليه الحيلة ، وأدرك من أمور معينة موت السلطان رغم شدة اختفاء الأمر[2] . على أن خبر الموت ما لبث أن شاع بين صفوف الجند ، ولم يبق مكتوما عن الأهالى ، وترامى نبؤه بطبيعة الحال إلى المعسكر الصليبى ، فوجد الملك لويس الفرصة مواتية للمبادرة بالزحف على القاهرة والاستيلاء عليها قبل وصول تورانشاه إليها ، وفى هذا الصدد يقول العينى[3] « إنهم لما تحققوا خبر موت السلطان خرجوا عن دمياط بفارسهم وراجلهم وشوانيهم فى بحر النيل ، ونزلوا على فارسكور ، وتقدموا منها مرحلة ، فأرسل الأمير فخر الدين إلى القاهرة ومصر يستنفر الناس للجهاد » .

اهتزت الدوائر المسئولة فى مصر لهذه الحركة المباغتة من جانب

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، ص ١٢٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٣٦٢ — ١٣٦٣ .

(٣) العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٧ .

الفرنسيين ، وقرىء فى جامع القاهرة كتاب فيه حض الناس على الجهاد ، لم يذكر ابن واصل سوى مقدمته التى جاءت فيها الآية « انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . ولم يعن جمال الدين بإيراده كاملاً ، بل كل ما قال عنه « إنه كتاب بليغ أظنه بإنشاء بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة ، وتحريض على قتال الكفار ، وإن الفرنج قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية [1] » .

ومهما يكن الأمر فقد نهضت الحملة ، واجتازت منطقة ثلاثية واقعة فى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة ، ويحدها من الشمال الغربى فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى بما كان يعرف بفرع « أشموم طناح » ، الذى يعرف اليوم بالبحر الصغير [2] .

لم يكن الأمير فخر الدين بالقائد الذى يستهان به ، وما كان فراره من دمياط يوم مقدم الصليبيين إليها إلا عجيبة فى تاريخه ، وهو الفارس القائد باعتراف الإمبراطور فردريك الثانى صديقه الحميم ، ولما رأى فخر الدين أنه المسئول الأول فى هذا الظرف الجديد — عن سلامة البلاد فقد رتب صفوفه ترتيبا دل على كفاءته الحربية ، وعلى أن ثقة السلطان الصالح من قبل وشجر الدر به الآن ليست خبط

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٥ ا .

(٢) Schefer : Archives de l'Orient Latin, t. II, p. 95 — 96.

عشواء ، وإنما جاءت عن حكمة وترو ، وإن الأول منهما — على الأقل — كان قد عجم عود القواد فلم يجد أقوى ولا أحرص منه على سلامة الجيش وسلامة الدولة المصرية . والمشاهد فى هذا العصر على وجه العموم أن الأمير أو السلطان — رغم مشاغل الحكم — كان قادرا على قيادة الجيش والخوض به فى المعارك بما يضمن النجاح فى الغالب إن لم يكن على الدوام ، فما بالك برجل ليس له من عمل سوى الحرب وتقدير ظروفها ؟ ولهذا نرى أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ قد أوقف القوات المملوكية دون البحر الصغير لتحول بين الصليبيين وبين عبور النهر ، وبذلك يصبحون محاصرين حيث هم فى جزيرة دمياط ، وبقى هو فى المنصورة.

وفى ختام الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٩ م قام — والفجر قد أوشك أن يتنفس — بهجوم خاطف هو وجماعة يبلغون ستمائة رجل ، اختارهم من خيرة فرسانه الأشاوس ، وفاجأوا العدو فيما بين فارسكور وشرمساح ، ولم يجدوا مقاومة إلا من جانب « الداوية » ، الذين هزمهم وأثار حميتهم منظر رئيسهم « رينو فيشيه » وقد طرحه المماليك أرضاً ، فاستمر القتال بين الفريقين ، وقتل فى هذه المعركة جمع غفير من المصريين وفيهم العلائى أمير مجلس . وكان ذلك الاشتجار رغم أوامر لويس ، الذى ما كادت المعركة تنجلى حتى ذهب بجيشه وعسكر عند « شرمساح »[١]

---

(١) وتعرف عند كتاب الصليبيين فى هذا العصر باسم « Seresaph » ، راجع فى ذلك Estoire de Eracles , p. 437 et note „ i „

ذاتها ، ثم انتقل منها إلى « البرمون » ، وأهمية هذا الموقف هو أنه جعل الصليبيين فى مواجهة المنصورة حيث توجد القوات المصرية ، ولم يعد يفصل الفريقين بعضهما عن بعض سوى بحر أشمون ، كذلك لم تعد المسألة بين المصافين أكثر من مناوشات غير حاسمة فى تقرير مصير الحرب أو فى ترجيح كفة أحد الجانبين ، واعتمد اليزك المصرى إلى حد بعيد على الجماعات غير النظامية ، وهم أفراد مخاطرون كانوا يجازفون بأنفسهم فى اقتحام المعسكرات الصليبية بعد أن يعبروا النهر سباحة إليه ، فيصيبون ماتقع عليه أيديهم ، سواء أكان ذلك فى الرجال أم المتاع والعدد ، ثم يتسللون لواذاً تحت جنح الدجى وفى غبش [1] الظلام ، ويروى المقريزى [2] ما عمد إليه أحدهم من أنه أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو إلاأن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها حتى اختطفه السابح ، وعام به ، وقدم به على المصريين ، ويشير جوانفيل — هو الآخر — إلى أمثال هذه الأعمال . [3]

انزعج خاطر لويس التاسع لهذه النكبات التى ينكب بها رجاله

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٥٧ ب ، ٣٦٥ ب — ٣٦٦ ا ، والعينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٣) وهى مطابقة لما يورده ابن واصل ، راجع Joinville's Memoirs , p.199 – 200

كل ليلة على أيدى أفراد من المصريين ، يكبدونه فيها خسائر ليست بالطفيفة ، ويلحقون الفوضى بصفوف جنده ، ويبثون الذعر والقلق بينهم ، لذلك عهد إلى إخوته الثلاثة بحراسة أقسام المعسكر المختلفة ليلا ، وحدد لكل واحد منهم منطقته المسئول عنها أمامه مباشرة ، وكان من بين من اشترك فى هذه الحراسة «جوانفيل» [1] ، صاحب المذكرات الفريدة فى بابها عن هذه الحملة .

علم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ نبأ هذه الاستعدادات ، وأدرك مكانة الجد فى مايهدف إليه الملك الفرنسى ، فرأى أن خير ما يعمد إليه هو مباغتة القوات الصليبية على حين غفلة ، ودون أن تأخذ للأمر أهبتها ، علماً منه بأن سياسة المباغتة أجدى لصالحه وأحسن مايمكن اتباعه لبث الاضطراب فى معسكر العدو الأجنبى . وكان الأمير فخر الدين يعلم إلى جانب هذا ما تكبدته الحملة من المشاق والأهوال فى عبور مسافة صغيرة ، حتى لقد استغرقت ما يقرب من شهر فى إعداد طريق لم يتجاوز طوله خمسين [2] ميلا ، والظاهر أن القائد المملوكى أسرف فى الآمال العريضة ، إذ وعد رجاله بتناول طعام الغذاء فى فسطاط الملك لويس يوم عيد العنصرة

---

(1) Joinville's Memoirs p. 193 — 194

(2) Manus. de Rothelin, p. 597; Lane-Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 233.

كما يزعم أحد كتاب الحملة [١] ، ولعله — ونعنى الأمير — كان واثقا من هزيمته للصليبيين وسرعة تغلبه عليهم . وربما كان الذى أطمعه فى هذا الأمر طول المدة التى قضاها الفرنسيون فى البلاد منذ تقدمهم إلى دمياط حتى هذه اللحظة ، دون أن يستطيعوا التقدم كثيرا إلى الجنوب [٢] ، وعلى هذا يمكن أن نجزم بأن الوقت كلما طال كلما كان ذلك فى خدمة المصريين .

جمع الأمير فخر الدين بعض قواته وفاجأ المعسكر الصليبي من ناحيته الشمالية، وتختلف المصادر العربية والفرنجية فى تقدير نتيجة هذا القتال ، فبينما نرى أحدهم [٣] يؤكد استظهار المصريين على الفرنجة استظهاراً عظيما ، إذا بالكتاب الغربيين أمثال جوانفيل [٤] وروتلين [٥] يؤكدون أن الصليبيين دفعوا المصريين وكبدوهم خسائر فادحة ، ولعل التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين تمام التناقض يكون مقبولا إذا قررنا أن كلا من كتاب الفريقين أشار فيما يتعلق بالنصر الذى لاقاه رجاله فى بعض مراحل القتال ، وإن

---

(١) Joinville's Memoirs, p. 202 — 205.

(٢) Manus. de Rothelin, p. 597.

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٤) Joinville Memoirs. loc. Cit.

(٥) Manusc. de Rothelin. loc cit.

يكن الواقع أنه يُعد — من وجهة النظر الشرقية — نصرا ، لأنه عاق العدو عن التقدم وعبور البحر الصغير ، لذلك أمر الملك لويس بإقامة حاجز على البحر على مسافة نصف فرسخ من التقائه بالنيل ، كما أمر بإقامة برجين عظيمين ، يشهد المؤرخون وكتاب الحملة بأنهما كانا غاية فى القوة وحسن الاستعداد . وكان المنتظر فى هذه الحال أن يكون البرجان ذوى فائدة للصليبيين فى تحطيم الاستعدادات المصرية ، لكن جرت الأمور عكس ما هو منتظر ، فقد تمكن المصريون من تحطيم البرجين الصليبيين بفضل استعمالهم النار الإغريقية ، التى أخذت من بهما من الجنود من كل جانب ، حتى أصبحوا يرون الغنيمة فى الخروج منهما سالمين ، ولكن دون ذلك أهوال النيران وسهام المماليك تنوشهم من كل ناحية . واستطاعت القوات المصرية تكبيد العدو خسائر جمة غير منكورة ، فلما رأى لويس ما فيه رجاله من البلوى والمحنة ، لم يجد غير العكوف على الصلاة سبيلا ، عسى أن تدفع عنهم ذلك الخطر المهلك والموت الأكيد .

* * *

تبين للصليبيين إذ ذاك صعوبة — بل استحالة — المرور إلى بقيتهم وعبور النهر ، نظراً لوجود القوة المملوكية المرابطة بآلاتها الضخمة على الشاطىء الآخر ، واستعانتها بالنار الإغريقية ، على أن الظروف عاونت الحملة الفرنسية إلى حد بعيد ، كما يقول التاريخ ،

أو أن صلاة لويس استجيبت، كما يقول مؤرخه، فتهيأت له ولرجاله النجاة بعد أن يئسوا منها أو كادوا، وتهيأ لهم من النجاة أكثر مما كانوا يتصورون أو مما قد يجول ببال المتفائلين منهم، وذلك حين قدم أحد الأعراب [1] عارضاً خدماته على الجيش الصليبي بأن يدله على مخاضة عند «سلمون»، لقاء مبلغ معين من المال يتسلمه مقدماً، فقبل الملك ما عرضه الأعرابي، وأجابه إلى طلبه الخسيس.

على أن الملك لم يشأ أن يعبر الجيش بأكمله مرة واحدة يوم ٨ فبراير سنة ١٢٥٠، بل اختار فيلقاً كبيراً من البارونات وأتباعهم من العسكر لعبور البحر الصغير، فكان في المقدمة فرسان الداوية، يتلوهم فريق كونت دارتوا، وكانت أوامر الملك صريحة — وكأنه يرى الغيب — ألا يتقدم أحد ما أمامه، وكأن نشوة العبور بثت روح الحماسة في نفوس جماعة الفرنسيين، فانثالوا — والفجر لم يشرق بعـــد — على معسكر المصريين [2] وفاجأوهم على حين غرة، وعلا الصريخ، ووصل إلى سمع الأمير فخر الدين، وكان إذ ذاك في الحمام، فهرول مستطلعاً جلية الأمر، فعلم أن الصليبيين قد تهيأ لهم عبور «البحر الصغير» في غفلة من المماليك ومن العسكر، ولم يقتصروا على ذلك العبور بل واتتهم الشجاعة ودفعتهم الحماسة،

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٣٦٦ ب، Manus. de Rothelin, P.602; Reinaud: Extraits des Historiens Arabs, p. 458.

(٢) العيني: عقد الجمان، ص ١٩٦.

فاقتحموا المعسكر المصرى واختلطوا به ، وأخذوا يُعمِلون السيف فى رقاب القوم وهم نيام ، أو بين اليقظة والنوم ، واختلط الحابل بالنابل ، وعمّ الاضطراب اليزك المملوكى ، إذ لم يكن يتوقع مثل هذا الهجوم المفاجىء ، وإن كان ذلك التبرير لا يبرر عدم اتخاذهم كل أساليب الحيطة ، إذ الحرب خدعة .

على أية حال أسرع الأمير فخر الدين بامتطاء جواده غير قاصد الحرب ، إذ لم يكن فى درعه ولا لامته ، ولم يكن بالمتحفظ أو المستعد ، ولكن أملامنه فى أن يحمل الجند على الركوب ويثبّت أقدامهم ، ولم يكن يقدر أن حينه قد حان ، وأن الصليبين قد نصبوا له كمينا فى الطريق سرعان ما تردى فيه ، فأقبل عليه فرسان الداوية تنوشه سيوفهم ، فاستشهد[1] :

وأمسى شهيداً ثاوياً فى عصابة يصابون فى فج من الأرض خائف

وفقد الجيش بقتله قائدا من أبرز قواد تلك الفترة ، وفارسا لم يستطع الغرب والإمبراطور فردريك الثانى إلا الاعتراف بفروسيته :

لئن قتلتم عميداً لم يكن صدداً لنقتلن مثله منكم ، فنمتثل

لئن منيت بنا عن غب معركة لا تلفنا عن دماء القوم ننفتل

فاعجب للمقادير فى تصرفاتها .

قائد يرمى بنفسه فى غمرات الأهوال ، ويقتحم الأخطار ، ويواجه الموت حيث تشتبك السيوف وتلتحم الأسنة فلا يصيبه شىء ، حتى إذا وافاه حينه لقى الموت من حيث لا يحتسب ولا يرجو ، ولكن :

(١) أبو الفداء : المختصر ، ص ١٢٨ .

إذا أنت أفنيت العرانين والذرى رمتك الليالى عن يد الخامل الغمر
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى فمن ليد ترميك من حيث لا تدرى؟

* * *

ليس من شك فى أن نهار الثلاثاء خامس ذى القعدة (٨ فبراير ١٢٥٠) كان ذا شقين، أحدهما يحمل فرحة البشرى إلى معسكر الفرنجة، والآخر كان نذير السوء للمعسكر الإسلامى من جراء مصرع قائده ابن شيخ الشيوخ ، والواقع أن هذا الهجوم المفاجىء على اليزك المصرى كان بإقدام كونت دارتوا[١] الذى أنسته نشوة النصر إتباع أوامر الملك بالانتظار حتى تفد بقية العسكر الصليبى ، ويقرر جوانفيل[٢] أن ذلك العمل — رغم أكله الطيبة المبكرة — قد أغضب الداوية ، حيث أنهم كانوا فى المقدمة ولكن الكونت تخطاهم ، وقد لازمه هذا التهور والاندفاع ،مما أدى إلى مصرعه بعد قليل [٣] .

٩

كانت مقدمة الجيش الصليبى هى التى أسعفها الوقت بعبور الجسر الصغير ، وهذه المقدمة مؤلفة — كما ذكرنا — من فرسان الداوية وفريق الكونت دارتوا ، ويذكر مؤرخ سيرة الملك أن هذه الكوكبة

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

(٢) Joinville : Memoirs, p.192-193.

(٣) Oman : Art of War in the Middle Ages, Vol. I, p. 350-352.

من الفرسان وأتباعهم ماكادت تعبر مخاضة السلمون ويبصرهم المماليك حتى انطلق منهم ثلاثمائة مملوك فراراً ، فشجع ذلك الفرار الصليبيين ، وعلى الأخص كونت دارتوا ، الذى لم يعبأ بأوامر الملك القاضية بالوقوف حيث هم حتى يلتئم شمل بقية الصفوف ، ويتوافد جمع الفرسان وأتباعهم ، والبارونات وجنودهم . ولم يكن فى الاستطاعة بطبيعة الحال أن يعبر الجيش بأكمله المخاضة دفعة واحدة ، وإلا وقف المماليك على سر المؤامرة الصليبية ، وأفسدوا على أصحابها تدبيرهم ، وبذلك تذهب ريح الصليبيين ويفشلون فى تحقيق الغاية التى سعوا إليها مبكرين .

على أن فرار هؤلاء المماليك الثلاثمائة بعث الفتوة فى نفس كونت دارتوا ، وكان الواجب يقتضيه أن يتبصر الأمر عسى أن يكون الرفق فى الأمر أرشد ، لكنه نسى أوامر أخيه أو تناساها ، وضرب بها عرض الحائط ، ولم يصغ سمعا إلى تحذيرات فرسان الداوية الذين كانوا معه والذين أرادوا أن يحيلوا بينه وبين ما هو قادم عليه مما يغضب الملك منه، والذين كانوا بلاشك أدرى منه بفنون الحرب والقتال ، وكانوا أعلم بكيفية معالجة الموقف الحربى بما يضمن النصر للجيش الفرنسى ، وينص أحد مشاهدى هذه الوقعة على خطأ الكونت . بل يذكر أقوال الأخ جيل Giles مقدم الداوية فيقول بهذا الصدد « إن الأخ جيل الفارس المعلم القوى ، والملم بالحرب ، والبارع فى تدبير عامة

الشئون ، قال للكونت دارتوا إنه يجب عليه هو ومن معه التريث والتجمع وانتظار الملك والفرق الحربية الأخرى التى لم تعبر المخاضة بعد[1] ، لكنه تجاهل ذلك كله وتقدم غير هياب ولا وجل ؛ وكان فى الإمكان الاكتفاء مؤقتا بما ناله الصليبيون قبل لحظات من نصر كان مظهره المادى مقتل الأمير عز الدين على حين غفلة منه ودون أن يأخذ للأمر أهبته ، وإذا القلوب استرسلت فى غيها كانت بليتها على الأجسام . على أن التهور الذى يلاحق الأرعن يأبى أن يفارقه ، فيحسب الاندفاع فى الحرب دون تقدير لما يترتب على ذلك الإقدام من هلاكه وهلاك من معه شجاعة ، وما الرأى إلا قبلها ، وكان الواجب يقتضى من كونت دارتوا أن يستجيب إلى رجاء فرسان الداوية الذين كانوا أكثر إلماما منه بأساليب الحروب الشرقية وقتال المماليك على وجه الخصوص[2] ، ولكنه رماهم بالجبن وعيَّرهم بالخيانة ، مما لم تحتمله نفوسهم « كفرسان » ، ورأوا أن يقدموا معه دون أن يحسبوا حسابا لما يترتب على هذا الإقدام من تضحية ليس لها ما يبررها ، والواقع أنهم ملومون فى هذا الإقدام الغبي ، ولا تقل تبعتهم فى العمل على مصرع كونت دارتوا عن تبعته هو فى تحمل دمه ، رغم أن الأخ جيل — مقدم

---

(1) Groussel : Hist. des Croisades, t. III, p, 461.

(2) Lane-Poole : Hist. of Egypt, p. 235.

الداوية — لم يفته النص على ذلك فقال له « يا سيدى ، لا يعرف الخوف سبيله إلىّ أو إلى أى واحد من إخوانى ، ولن نبقى فى المؤخرة ، بل سنذهب معك ، ولكن أحب أن تعرف تماما أننا نشك فى أننا سنرجع أبداً »، وهذا قول رجل مدرك لحقائق الأمور إدراكا صحيحا ، ومصيب فى تقديره لخواتيمها .

وغير بعيد أن يكون الكونت قد عزّ عليه أن يقال إنه تراجع أمام إلحاح الداوية وأبى إلا أن يتقدم دون استعداد :

أشد على الكتيبة لا أبالى　　أحتفى كان فيها أم سواها

وأبى إلا أن يزحف على اليزك المملوكى وفيه جماعات البحرية الصالحية ، وكانوا قد نصبوا آلات الحرب والقتال ، وأقاموا الأبراج المتحركة عند ناحية تعرف بجديلة ، ويتساءل الأستاذ جروسيه : « أليس من الممكن أن يكون الدافع له على ركوب هذا المركب الوعر هو ما يكون قد تردّد فى المعسكر المصرى من خبر فروسيته ؟ »، وهو تساؤل يحمل فى طياته كل معانى الطعن ، وينطوى على السخرية به ، ومهما يكن الأمر فإن كونت دارتو قد تقدم نحو المصريين فى جديلة ، ولم يكن عدد الذين معه من رجاله ومن الداوية — وفيهم جماعة من الإنجليز — يعدو ألفا وأربعمائة فارس على حدّ تقرير المقريزى[1] ، على حين أن بعض المراجع الأخرى

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

تقدّر عدد القتلى من الصليبيين وحدهم بألف وخمسمائة ، ما بين فارس وراجل[١] .

انزعج المصريون فى المنصورة من هذا الهجوم المفاجىء . ووردت البطاقة إلى القاهرة تحمل هذا النبأ المزعج الذى لو حاول مراسل صحيفة فى القرن العشرين أن يبرق به إلى صحيفته لما استطاع أن يختزلها أكثر مما جاء فى بطاقة القرن الثالث عشر من قول القائد « هاجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد[٢] » ، ويعلق ابن واصل — معاصر هذه الأحداث — على ذلك بقوله « انزعجنا وغلب على الظنون بوار الإسلام ، على أنه كان من سعادة المسلمين تفرّق الإفرنج فى الأزقة » .

تابعت القوات الصليبية حركة تقدمها نحو « جديلة » ، ولم يقدر الكونت دارتوا مقدار استعداد الجيش المصرى فى هذه البقعة ، على أن الأسى الذى شمل النفوس حزنا لمصرع الأمير فخر الدين لم يكن ليقعد بالعسكر والمماليك البحرية عن حمل اللواء فى جهاد « الكفار » . والمماليك أهل حرب وقتال وفروسية ، ولدوا على الجياد ، ونشأوا بين قعقعة السيوف وحمحمة الخيل ودوى الطبول

---

(١) راجع كتاب الروضتين لأبى شامة ، ص ١٩٥ ، وكذلك Lane-Poole Op., Cit. p. 235., Oman : Op. Cit. Loc. Cit. ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ب .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ب ؛ ٣٦٧ ا .

ونفير القتال ، وإذا لم يجدوا عدواً يقاتلونه لم يعجزوا عن تهيئة المناسبة بمبارزة بعضهم لبعض .

ولمّا تداعى القوم واشتبك القنا
ودارت ، كما تهوى ، على قطبها الحربُ
وزُيّن للناس الفرار من الردى
وماجتْ صدور الخيل والنهب الضرب
صبرنا لها حتى تجلّت سماؤها
وإنا لصبر إن ألمّ بنا الخطب

وقد ذكر أحد المؤرخين(١) بصدد هذا الأمر قصة عجيبة حدثت أيام صلاح الدين الأيوبي ، وهي تدل على ما انطووا عليه من الفروسية ، ذلك « أنهم قالوا إلى كم نقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ، نريد أن يتصارع صبيّان مناومنكم ، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الأفرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيّين المسلمين إلى أحد الكافرين فاختطفه ، وضرب به الأرض ، وقبضه أسيراً ، فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقا ، فأخذ الدينارين وأطلقه » :

وكل رفيقي كل رحل — وإن هما
تعاطى القنا قوماهما — أخوان

بل إن تاريخهم السياسي يكاد يكون سلسلة من القتال فيما بينهم ،

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٢ .

وإذن فلا عجب إذا وجدوا فى تهوُّر كونت دارتوا فرصة طيبة لإشباع ميولهم الحربية ، ولعلهم رحبوا بها أكثر من ترحيب الكونت ذاته ، وهيأ الوقت الفرصة المناسبة لظهور قائد من بينهم يحل محل الأمير فخر الدين ، ذلك هو بيبرس البندقدارى الذى حمل راية الجهاد بعد أن خرَّ ابن شيخ الشيوخ جريحا .

حقيقة «أنه اشتد الخطب بعد مقتل ابن شيخ الشيوخ »، ولكن ما لبثت الطائفة التركية من الجامدارية والبحرية الصالحية أن عادت سيرتها ، وحملت على الفرنجة[1] الذين تجمعوا — فارسهم وراجلهم — أمام القصر السلطانى يريدون اقتحامه .

والواقع أن مصير مصر بأجمعها كان مقدرا أن يتقرر فى هذه الموقعة ، فلو عُقد النصر للصليبيين وتهيأت لهم الغلبة على القوات المصرية لوجدوا الطريق ميسرا أمامهم إلى قصبة البلاد ومصر ، ولضاعت قوة الشرق التى كانت مصر ولاتزال سرها وبيدها لواؤها ، إذ لا تعدو المعارضة حينذاك أن تكون مناوشات لا يعتد بها ولا تؤثر فى استقرار الحكم للفرنسيين بمصر ، ومعنى ذلك كله أن انتصار الدخيل الغربى يحيل الكنانة إلى إيالة صليبية فرنسية ، وإذن يتغير وجه التاريخ فى منطقة الشرق العربى بأكمله ، لما يتبع ذلك النصر الصليبى من استيلاء الأجانب على فلسطين وبلاد الشام بأجمعها ، ثم الإغارة على أطراف بلاد العراق الشمالية وعلى العراق ذاته والتوغل فى

(١) العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٨ .

قلب الجزيرة ، ولم يكن فى قدرة بغداد يومذاك الصمود أمام أيّة قوة خارجية ، والدليل على ذلك سرعة انهيار الخلافة العباسية على يد المغول بعد سنوات قلائل من هذه الأحداث .

ولقد أدرك المماليك البحرية — وفيهم بيبرس البندقدارى — أن المسألة مسألة حياة أو موت لأحد الفريقين المتحاربين ، لذلك كان من الضرورى على بيبرس ومن معه أن يضحّوا بكل شيء فى سبيل الاحتفاظ بكل شيء ، وليس هناك أمر وسط بين الحياة والموت ، أو بين الكل والعدم .

لذلك اشتد المماليك البحرية والجمدارية فى دفع الصليبيين ، واستطاعوا بعد لأى أن يدفعوهم عن باب القصر السلطانى ، وأخذت الفرنسيين العزة بالإثم ، فطمعوا أن يتيسر لهم دخول القصر والاستيلاء على الطريق المؤدى إلى مصر والقاهرة ، ومن ثم تنطلق قواتهم خلال الدلتا دون أن تجد مقاومة ، ولم يفت هذا الأمر جماعة المماليك الذين حملوا على العدو حملة صدق فى سبيل مصر ، وما كان الفرنسيون بعجزين فى الأرض ، وسيدركون أن مأواهم الصحارى والقفار وبطون النسور ، فقدولوا مدبرين ، وإذذاك أخذتهم السيوف والدبابيس المصرية من كل جانب ، ووقع القتل فيهم ، وأصاب المصريون منهم مقتلة عظيمة ، وأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى شوارع البلد محصورين مقتولين ، يسبحون فى بحر من الدماء المطلولة التى أغرام طمعهم فى الفتح على أهراقها .

وكم ذنب مولّده دلال وكم ذنب مولده اقتراب
وجُرْم جرَّه سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

على أن الذى يعنينا عناية خاصة هو موقف الشعب نفسه فى هذه المعركة ، فقد وصل الفرنسيون فى هجومهم على المنصورة إلى قلب المدينة ، بدليل وقوفهم أمام القصر السلطانى ، على أن هناك مسألة تستحق البحث هى التوفيق بين إيراد الحوادث عند المؤرخين المسلمين وعند جوانفيل ، ذلك أن المؤرخ الصليبي [1] يشير إلى أن جماعته أخذت فى مطاردة اليزك المصري فى شوارع المدينة وحاراتها فى بداية الأمر ، فلما شرعوا فى العودة أخذ الشعب فى مقاتلتهم بكل ما تصل إليه يده ، على حين أننا لا نجد فى المصادر العربية التى بين أيدينا ما يشير إلى فرار الجيش المملوكى أمام الفرسان الصليبيين ، بل كل الذى حدث هو شىء من الاضطراب للهجوم الفرنسى المباغت .

وليس من المستبعد أن يكون الصليبيون قد وجدوا الطريق ميسرا أمامهم عقب اجتيازهم مخاضة البحر الصغير مباشرة ، لاسيما وأنهم قد أصابوا النصر فى بداية الأمر عقب مباغتتهم الجند المملوكى ، وأخذهم إياه على غرة ، وبعد قتلهم الأمير فخر الدين . وفى أثناء هذه المدة التى انقضت بين مصرع ابن شيخ الشيوخ وبين مجىء بيبرس البندقدارى برجاله ، كان الفرنسيون قد اقتحموا الطرق ووصلوا إلى باب القصر السلطانى ، وحينذاك فاجأهم المماليك البحرية وحصروهم

---

(1) Davis : The Invasion of Egypt, p. 38.

فى شوارع المنصورة الضيقة ، وأخذ الأهالى يرمونهم من نوافذ المنازل وأسطحها بكل ما تصل إليه أيديهم من الأمتعة المنزلية والحجارة . وكان الفضل فى هذه الحركة للعامة التى يهملها التاريخ إهمالا تاما ، مع أنها هى التى ضمنت النصر على الفرنسيين فى ذلك اليوم الخالد ، وجنّبت مصر والشرق العربى بأجمعه ويلات الاستعمار الفرنسى منذ سبعة قرون . وهكذا سدّت السبل أمام هــذا الفريق من الصليبيين ، وتخطفهم الموت من كل جانب ، فأصبحوا لا يعرفون من أين يتقونه : أمن فوقهم ؟ أم من أمامهم ؟ أو من خلفهم ؟ ، فأنى وجّهوا وجوههم فثمّ المـوت والقتـل والتخطيف ، وهلـكوا عن آخرهم غير نفر لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة تهيأت لهم أسباب الحيـاة ، ليقصّوا على بقية رجال الجيش مأساة المنصورة أو حطين الثـانية التى ألمّـت بمقدّمة الجحافل الصليبية ، وليحمل أحدهم ويعرف بهمبرت دى بوجو[1] Imbert de Beaujau إلى الملك نبأ موت أخيه روبرت كونت دارتوا ، دون أن يجنى من هذه التضحية التى أقدم عليها ما يفيد الجيش الفرنسى ، أو يسجل له فخراً ما ، بل لقد أضاع هيبته ، وهيّأ للماليك الفرصة الطيبة لضم صفوفهم ولم شعثهم والاستعداد لإخراج الفرنسيين بأجمعهم من البلاد عن قريب ، وهكذا كانت المنصورة مثوى أولئك الفرسان من الداوية ورجال الـكونت دارتوا الذى يحمل فى عنقه الدماء المطلولة

---

(1) Davis : The Invasion of Egypt, P. 38.

يومذاك،والتى انسكبت فى شوارع المدينة المصرية ، وبذا انطوى الفصل الأول من كتاب الحرب الصليبية السابعة على شر ما تنتهى إليه الأمور المنكودة الطالع من وجهة النظر الفرنسية ، وطويت صفحة ختمت بالدماء دون أن تبهر العقول ، أو تحمل التاريخ على الإعجاب ببسالة ذلك الكونت الأرعن ، ووقف التاريخ موقف الاعتبار والإجلال من الجمهور المصرى وعامة أهل البلاد الذين قلَّ أن نجد لهم ولأمثالهم سطوراً فى كتاب المجد ، على الرغم من أن كل كلمة من كلماته قد كتبت بدمائهم .

١٠

لقد رأينا كيف دفع التهوّر كونت دارتوا لإهراق الدماء دون أن يجنى أية ثمرة يعتز بها جيش أخيه ، بل أضاع فيها على الحملة مايقرب من ألف وخمسمائة فارس ونبيل وبارون ، ، روّوا ثرى المنصورة بدمائهم ، وهلكوا شر هلكة ، وأدَّت هذه الحركة من جانب الكونت إلى أن يتحرك الشعب بطبقاته المختلفة ، ويساهم فى القتال حسب ما تيسّر له .

على أن خبر هزيمة الداوية وخاتمة الكونت المؤلمة لم تبلغ سمع الملك لويس إلا بعد حين ، وبينما المعركة دائرة الرحى فى حارات المنصورة كان لويس يبذل جهده ويشرف على عبور مخاضة النهر ، ولم يكن يدور بخلده بحال من الأحوال أن أخاه أو أحداً من الداويّة قد خرج عما أمر بتنفيذه ، وما كاد الملك لويس يعبر البحر الصغير

حتى وجد كتيبة من المماليك البحرية تشن هجومها عليه ، بعد أن تم لها الإجهاز على مقدمته التي قتلت بأجمعها تقريباً ، وأسقط فى يد الملك لويس الذى أخذته الدهشة من كيفية وصول هؤلاء الأعداء دون أن تصدمهم مقدمة الجيش وأخوه ، أو دون أن يشاهد لهم أى أثر .

أفهل تراهم انسحبوا ؟

أم تراهم قتلوا ؟

أم تراها حيلة منهم ليوقعوا جماعة المماليك البحرية والجمدارية بين شقى الرحى الفرنسية ؟

لعل هذه الأمثلة وأمثالها خطرت على بال الملك القديس وهو فى مكانه يشاهد عدوه يعبر البحر بمعداته كاملة ، ولا يرى أثراً لجماعة الداوية وفريق كونت دارتوا الذين كانوا أول الصليبيين اقتحاماً لتلك الناحية ، وأدرك لويس أنه مهما تكن حقيقة الأمر التى لابد وأن تتكشف سريعا فإن واقع الأحوال يتطلب منه أن يعمل ، وأن يعمل سريعاً لرد عدوان المماليك ، ثم ينظر بعـــد ذلك فى موقف الصليبيين الذين انفصلوا عنه ، لكن كيف يتأتى له القيام بحركة تصد العدو ، وهو فرد على رأس أفراد قلائل ، على حين أن المشاة والرماة الفرنسيين لا زالوا فى الخلف وعلى مسافة قريبة منه ؟ ولذلك لم يجد الملك بدأ من محاولة الارتداد ، ليكون على كثب

من جماعته ، وليحمي ظهره ومؤخرة جيشه من الخلف ، فليس من الشجاعة أن تخرج للقاء خصمك وأنت غير مستعد ، فما بالك بلويس فى هذا الموقف الذى تكشفت له فيه حقيقة ما جرى لمقدّمة جيشه ، وإن لم يخطر بباله قط أن الجماعة قد فنيت عن آخرها تقريباً .

مالبث الرماة والمشاة أن خاضوا النهر سباحة ، وإذ ذاك اشتدت عزيمة الملك ، الذى يبدو لنا — ونحن نطالع موقفه — ما كان عليه من رباطة الجأش وعدم الاضطراب الذى يصاحب الكثيرين إذا ما سدت أمامهم السبل فيزيدونها تعقيداً على تعقيد ، حتى ليؤدوا بأنفسهم فى النهاية إلى التهلكة ، ويسرعوا بها إليها إسراعا .

أمر الملك الجيش بالتقدم والاشتباك مع المماليك وعدم الاكتفاء برمى السهام والنشاب من بعيد ، وأدرك أن التحام السيوف خير ألف مرة وأجدى من الرمى عن الأقواس ، وكان الحق فيما ذهب إليه ، فقد استطاع الصليبيون صد المماليك ، وإذا كان صباح الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠م قد شاهد هزيمة مقدمة الفرنسيين ومصرع الكونت دارتوا ، فإن مساءه قد أقبل ليرى كفتهم وقد رجحت ، وليس معنى رجحانها انهزام المماليك وفشل ريحهم ، ولكن معناه هو صدهم عن أن يوردوا بقية جيش الفرنجة المورد الذى استقى منه إخوان لهم فى الصباح الباكر ، ولا شك أن الفضل فى حفظ بقية الجيش راجع

إلى الملك ، فقد توقفت سلامة جيش الفرنجة على الملك وحده دون غيره ، ذلك أن دوره كقائد اختلط فى هذه اللحظة بدوره كجندى ، وكان أمره عجيبا أشد العجب[١] ، وقد استمرت هذه المعركة من الصباح حتى الثالثة بعد الظهر[٢] والجيشان فى قتال مستمر :

فاليوم فى غسق العجاجة ليلة والكر يخرق سجفها الممدودا

وعلى الصفاح من الكفاح وصدقه روع أحال بياضها توريدا

ولم يعدم الملك الاستشارة فى ذلك الوقت ، فيروى كاتب سيرته ما شاهده بعيني رأسه حيث كان واقفا إلى جانبه ، فيقول « بينما كنا على هذه الحال ، إذ أقبل جون ڤاليرى Valèry ، وقال إنه يشير على الملك بأن ينتقل إلى اليمين إلى ناحية مجرى [النهر الصغير] ليضمن مساعدة دوق برجنديا وبقية القائمين بحراسة المعسكر ، فأمر الملك باستدعاء فرسان مجلس شورته ، فأقبلوا ، وسألهم أن يلقوا إليه بآرائهم فقالوا إن الخير كل الخير فى اتباع ما أشار به جون لورد ڤاليرى ، وحينذاك أمر الملك بتحويل راية سنت دنيس ، والتحرك يمينا شطر النهر ، وعندما تحرك جيشه ترددت مرة ثانية أصوات الطبول والصنوج والأبواق تدوى عالية » ، فأدرك المماليك مقصد الملك لويس من هذه الحركة المباغتة ، وحاولوا الهجوم على مؤخرة جيشه ، واستمر

(1) Grousset : Hist. des Croisades, p. 468.

(2) Grousset : Op. Cit. Loc. Cit

(3) Joinville : Chronicles, p. 192—193.

القتل فى الفريقين ، وجاءت الفرنسيين النجدات يترى بعضها فى إثر بعض ، إذ اغتنم الباقون فى المعسكر فرصة انشغال المماليك بمقاتلة الجيش وعبروا المخاضة وانضموا إلى إخوانهم ، فشالت كفة الجيش المصرى بطبيعة الحال ، مما حمل المماليك على الارتداد إلى المنصورة ، وحينذاك فقط علم الملك لويس بمصير أخيه كونت دارتوا ، فظل فترة يُغالب الدمع فى المحاجر ، والقلبَ أن يذوب ، ولكن من ذا الذى يمنع جمر الغضى عن الإحراق ، وأخيرا لم يملك نفسه من الاستعبار ، وجرت على خديه دمعتان :

دمعة بطل على بطل !
ودمعة أخ على أخ !

دمعتان هما كل ما استطاع لويس التاسع أن يفعله فى هذا الموقف ، وإن سجلهما التاريخ ، واليوم بعد سبعة قرون من ذلك الحادث تذكران وتجدان لها مجالا فى هذا الكتاب العربى .

دمعتان سفحتا والشمس جانحة إلى المغيب ، بعد أن غابت شمس دارتوا إلى غير عودة .

آلان يوم الفراق قسوته حتى جرى دمعه وما شعرا
لم يك شوقا لكن بكى جزعا لهول يوم الفراق إذ حضرا
فى مشهد ، لو أطاق شاهدُه فيه استتاراً لوجهه سترا

على أن هذا الحادث لم يكن ليعيق لويس عن متابعة الاستعداد لغزو البلاد ، فأخذ فى تقوية المعسكر الصليبى الواقع جنوب البحر الصغير ، وما انقضى على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى تجددت غزوة المماليك ، بعد أن انضاف إليهم الكثيرون من البدو الذين طمعوا فى الأسلاب الفرنسية ، ومن ثم تجددت حركات القتال ، وكانت ثم امدادات صليبية جديدة من فرنجة الشام وقبرص قد ترادف إقبالها وانضمامها إلى صفوف لويس التاسع ، مما استحال معه على المماليك أن تكون لهم الكفة الراجحة فى ذلك اليوم ، واضطروا إلى الارتداد مرة أخرى إلى المنصورة .

على أن هذا الارتداد لم يكن هزيمة خالصة للمماليك ، أو نصرا تاما للفرنسيين ، وإذا كانت العبرة بالخواتيم فإننا نستطيع أن نقول إن وقعة المنصورة — وإن حملت فى نهاية اليوم الأول الهزيمة — كانت نصراً للمصريين ، لما ترتب عليها من عدم استطاعة الصليبيين التقدم شطر الجنوب ، وصدق المقريزى[١] حين قال « إن هذه الموقعة ابتداء النصر على الفرنجة » .

على أن هذه الخاتمة السريعة التى يهال لها كتاب الفرنجة[٢] كانت أولى بأن تعد فى باب المآسى والفجائع ، وليس معنى النصر أن يدفع

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥١ .

(٢) Joinville : Chronicles, p. 242.

الصليبيون المماليك عن معسكرهم ويردوهم إلى المنصورة ، ولكن الواجب كان يقتضى أن ينظر أولئك الكتاب ومن يأخذ عنهم إلى مقدار ما استطاع الفرنسيون تحقيقه من أهداف غرضهم الأصلى،الذي يرمى إلى الوصول إلى عاصمة البلاد واحتلالها ، وإلى إزالة الدولة المملوكية ، وإقامة حكومة فرنسية صليبية ، فهل استطاعوا أن يحققوا ذلك كله ؟ بل هل استطاعوا أن يحققوا شيئا من هذا ؟ الإجابة على هذا السؤال لاتحتاج الى تدقيق كبير ، لأن واقع الأمور صريح فى أنهم لم يتقدموا ، خطوة واحدة إلى الجنوب ، ولم يستطيعوا محو عار هزيمة الداوية والثأر لمصرع كونت دارتوا فى المنصورة ، ولاسبيل إلى ذلك إلا بالاستيلاء على المدينة ، لكنهم فازوا من غنيمة الحرب كلها بالوقوف حيثهم ، ليس لهم متقدم عن مكانهم ، بعد أن تكبدوا من الخسائر فى الرجال والذخائر والآلات شيئا كثيراً يشهد به مؤرخوهم ، ولا ينكر أن المعسكر المملوكى تكبد أمثال هذه الخسائر هو الآخر ، إنما تهون عليه لقدرته على تعويضها ، فالبلاد بلاده ، وأهله مستعدون فى أية لحظة لتعويض هذه الخسائر إذا كانت ثمة ضرورة تدعو لذلك ، وهل هناك ما هو أمس بمستقبلهم وبوضعهم السياسى والاجتماعى من أن تصبح مصر إمارة صليبية ؟ ، لذلك كان الأهالى على استعداد دائما لتعويض جيشهم كل ما يخسره ، على حين أن تعويضها عند

الجانب الصليبي يتطلب وصول إمدادات جديدة من فرنسا أو قبرص أو من أمراء الفرنجة بالشام ، ولا يخلو الأمر حينذاك من التعرض للخطر فى البر أو فى البحر .

توالت الضربات على الصليبيين آخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فكان أول عمل عملوه هو الارتداد إلى دمياط على وجه السرعة ، وبقوا مرابطين عند البحر الصغير دون أية حركة مدة سبعة أسابيع ، وهى فترة ليست بالقصيرة ، وكان واجب لويس كقائد عام يقتضيه تقدير العامل الزمنى ودخله فى تقرير مصير القتال ، لا سيما وأنه لم يصله فى هذه الأسابيع شىء من الإمدادات أو الذخيرة ، وطبيعى أن تقل الأقوات والمئونة عنده دون أن يرد إليه شىء من الخارج ، ودون أن يستطيع القيام بأية حملة فى الداخل على المدن المجاورة لضمان الذخيرة ، فكأنما لويس فرض على نفسه وعلى من معه أسراً طويل المدى ليس له مايبرره ، لذلك كلما طال الوقت كلما كان ذلك فى صالح المماليك الذين لم يفتهم تقدير ذلك العامل الهام ، فاستغلوا هذه الأسابيع السبعة بما فيه صلاح أحوالهم وإيقاع الضرر بالجانب الصليبى ، وأخذوا فى بناء السفن وجمع المجاهدين والذخيرة ، وكل هذه — من غير شك — عوامل تدعو إلى ترجيح كفة المماليك على الفرنسيين فى محاربتهم إياهم .

على أن المصريين عمدوا قبل كل شىء إلى صنع المراكب ، ثم

« حملوها وهى مفككة على الجمال إلى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة » ، ومعنى هذا أنهم أرادوا القيام بعمل حاسم فى تقرير مصير الحرب ، كما أنهم أرادوا القيام بقطع السبيل على الصليبيين ، حتى لا يستطيعوا تموين أنفسهم ، وذلك أن وجود المراكب المصرية فى النيل وفروعه وشحنها بالمقاتلين يعرقل أية حركة يقصد بها تموين معسكر العدو ، ولقد نجحوا فى ذلك إلى حد يمكن معه القول بأن الفضل فيما ألمّ بالفرنسيين من الأهوال من الآن فصاعدا إنما يرجع قبل كل شىء إلى أثر هذه المراكب المباشر ، وإلى قدرتها على منع الميرة من الوصول إلى دمياط .

وكان أول آثارها المادية الملموسة أن قدم أسطول من دمياط يحمل المؤونة والذخيرة إلى المعسكر الصليبي عند البحر الصغير ، وكان فى قدرة هذا الأسطول أن يصل سليما ، وأن تشتد به سواعد الفرنسيين ، لولا أن ترامى خبره إلى المراكب المصرية ، فكمنت له فى بعض الطريق ، حتى إذا شارفها باغتته ونشب القتال بين الفريقين ، وحينذاك أقبل الأسطول المصرى من ناحية المنصورة ، فتمت الغلبة للمصريين ، واستطاعوا الاستيلاء على عدد كبير من المراكب يقدّر باثنين وخمسين مركبا ، كما فقد الفرنجة قرابة ألف رجل منهم ما بين قتيل وأسير ، وترتب على هذا النصر أن وقع الغلاء عند الفرنج ، « وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا

يقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون عليهم ، وطمعوا فيهم[١]. ويلخص قاضى حماة[٢] ، صاحب التاريخ الكبير — مفرج الكروب — هذا الحادث ، بأنه لما استقر الفرنج بمنزلهم كانت تأتيهم الميرة من دمياط فى بحر النيل ، فعمد المصريون إلى مراكب شحنوها بالمقاتلة، وحملوها على الجمال إلى بحر المحلة ، وألقوها فيه .. فلما حادرت مراكب الفرنج وهى مقلعة من دمياط فى بحر المحلة ، وقع القتال بين الفريقين ، وجاءت أساطيل المصريين من جهة المنصورة متحدرة إليهم ، والتقى الأسطول والمراكب التى كانت مكمنة فأحاطوا بالفرنج فأخذوهم ومراكبهم أخذ اليد . . . وأسر من كان فيها ، وأخذ جميع ما فيها من الميرة . . . وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج ، ووهنوا وهناً عظيما ، واشتد عندهم الغلاء ، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب » .

وأخطر النتائج التى ترتبت على ذلك هى النقصان البين فى الأقوات عند الصليبيين وفشو المجاعة[٣] بينهم ، وكان لا بد لهذه الكوارث أن تدع الكثيرين من المسئولين فى الجبهة الفرنسية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٨ ب ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٨ ب .

(٣) Manus. de Rothelin, p. 592.

إلى التفكير فى حل يخرجهم من أزمتهم التى تردّوا فيها ، فكان من جراء ذلك تفكير بعضهم فى الرجوع إلى فرنسا ، أو الاتفاق مع سلطان مصر توارنشاه حتى يمدهم بأساليب العيش .

وتتالت حركات المراكب المصرية التى أمر توارنشاه بصنعها ، حتى إذا كان يوم عرفة ٦٤٧ هـ (= ١٦ مارس ١٢٥٠ م) التقت شوانى المسلمين عند مسجد النصر بمراكب الصليبيين ، والتحم الأسطولان فى معركة لم يكن القصد منها الفتح ، لكن الغرض الأساسى منها عند الفرنجة هو أن يجدوا الذخيرة ولو عن طريق الصلح ، وطبيعى أن هذا لا يتأتّى لهم إلا إذا استطاعوا الانتصار على المماليك فى ذلك اليوم ، فلا مشاحة إذا كان القتال بين المصافين شديداً ، وعلى الرغم من استبسال الفرنجة فى مضايقة المصريين إلا أن كفة الأوائل شالت ، إذ فقدوا فى ذلك اليوم اثنين وثلاثين مركباً من بينها بضع شوانى[1] ، مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف روحهم المعنوية ، هذا بالإضافة إلى ما نتج عن قلة الميرة من ضعف جسمانى عام ، وانتشار الأمراض والأوبئة بينهم ، وكانت المجاعة فى صفوف الصليبيين أكبر عامل على تشجيع المصريين على مداومة القتال وتقوية ذاتهم المعنوية ، كما أن ضروباً شتى من الأوبئة والحميات

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٩ ا ، العينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٩ .

أثرت أثرها البارز فى الفرنسيين ، فأخذ الموت يتخطّفهم وهم فى معسكراتهم .

لم يخف على لويس ما تؤدى إليه هذه الأمور السيئة من نتائج وخيمة تهدد مستقبل الحملة ، ولعله أدرك يومذاك فشل خطته فى الاستيلاء على مصر ، فقد رأى قبل كل شىء أن يفر بجنده إلى داخل مدينة دمياط ، فعمد إلى حرق ما عنده من الأخشاب حتى لا تقع فى يد المصريين فينتفعون بها فى صنع مراكب جديدة وأبراج جديدة ، يكون فيها القضاء على البقية الباقية من عسكره وباروناته وفرسان فرنسا [١] .

على أن الارتداد إلى دمياط لم يكن بالأمر اليسير ، وما كان للمصريين أن يدعوا الجيش يفر أمام أعينهم دون أن يتعقبوه وينالوا منه ، ولذلك لم يكن ثم مهرب للويس وجنده أثناء تقهقرهم إلى دمياط من قتال أهالى البلاد ، سواء تعرضوا لهم أم لم يتعرضوا ، ولذلك جمع عسكره فى القسم الشمالى من البحر الصغير ، إذ رأى تلك الناحية واقية من هجوم مملوكى قد يشنه اليزك المصرى ، وإن لم يكن فى ذلك اليوم ثم عاصم من تغلب المصريين ورجحان كفتهم على العدو الذى حسب البلاد لقمة سائغة، وما علم أن من دون ذلك خرط القتاد .

أخذت مقدمة الجيش فى الانسحاب أمام هجمات المماليك المتزايدة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٦٩ ب .

وضغطهم المستمر ، وحمل لواء المقاومة الفرنسية قائد المؤخرة جوتيه دى شاتيون Gauthier de Châtillon الذى أخذ يحاور المصريين ويقاتلهم هنا وهناك ، حتى يصرف نظرهم عن المقدمة وفيها الملك لويس ذاته ؛ وكان جوتيه ومن معه يدركون تمام الإدراك ما عليه الجيش الصليبي بأجمعه من الضعف من جراء الأمراض التى تفتك برجاله فتكا ذريعا ، فكان الناجى من القتل بالسيف يتلقفه الوباء فيهلك به ويصرعه ، ولذلك فمن الجدير أن نثبت موقف البطولة الذى وقفه هذا القائد رغم إلحاح الأمراض عليه وعلى من معه ، وصبره على هذا اللقاء الكريه ، والصبر مطية النصر فى مثل هذه المواقف ، وما النصر إلا أن تسلم مقدمة الجيش ، وإلا أن يسلم الملك ، وثبت جوتيه ومن معه وقد :

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم ولم يبتغوا من خشية الموت سلما

ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

° ° °

وقد أسهب المقريزى فى وصف هذه المعركة ، فذكر أن الصليبيين رحلوا بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط ، وانحدرت مراكبهم فى البحر قبالتهم ، فتتبعهم المصريون بعد أن عبروا الماء الفاصل بينهم وبينهم ، ثم أحاطوا بالمؤخرة التى فيها جوتيه ، وأعملوا فى رجالها

القتل والأسر ، وبينما كانت خسارة المصريين طفيفة جدا لا تعدو مائة رجل ، خسر الصليبيون عشرة آلاف قتيل وأسر منهم مائة ألف ، وقد يكون فى هذا العدد شيء كثير من المبالغة ، ولكن لا شك فى أن خسارة الفرنسيين عظيمة ، تربو أضعاف خسارة المصريين ، وإذا كان بعضهم قد لقى حتفه بالسيوف والنشاب والسهام والدبابيس والحجارة ، فلا ينبغى نسيان عامل آخر ، ونعنى به تفشى الأوبئة(١) بين الفرنجة ، ومع التجاوز مرة أخرى عن الأرقام فى كلا الجانبين ، إلا أنه لا مشاحة فى أن هذه الوقعة كانت هزيمة قوية للجيش الفرنسى ، أدرك معها ألا مقام له بمصر ، وأيقن لويس التاسع أن كل يوم يمر عليه فى أرض مصر إنما هو انتحار يُقدِم عليه ، دون أن يجنى منه خيراً أو شرفاً له ولبلاده .

ولكن كيف يستطيع الإبقاء على جيشه والخروج من هذا المأزق الحرج ؟

لم يكن هناك سوى سبيل واحد ، ذلك هو طلب الأمان والرجوع عن البلاد بأى ثمن ، على أن يكون فيه حفظ شرفه العسكرى وكرامته الملكية ، وإبقاء على البقية الباقية من العسكر الفرنسى ، ولذلك رأى الاتصال بالملك المعظم تورانشاه للاتفاق

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

على شروط الموادعة [١] ، وأظهر استعداده لرد دمياط ، لقاء أخذه بيت المقدس .

لذلك عقد الملك لويس مجلسا للاستشارة مؤلفا من أقرب الناس إليه وأدناهم رحما به وأشدهم إخلاصا له ، فقرروا وجوب العمل على إنقاذه براً أو بحراً . ولكنه أبى إلا أن يشارك جنده مصيرهم إن حياة أو موتاً ، وهو موقف كريم ، يذكرنا بموقف بلدوين الثالث حين نصحه رجاله أن يتخلى عن محاربة دمشق ونور الدين إبقاء على نفسه فرفض [٢] ، فلما رأى مشاوروه إصراره الشديد ، وأدركوا أنهم غير مستطيعين صرفه عما عقد عليه العزم ، راحوا يتدبرون طريقا آخر يحفظ فى الوقت ذاته ملكهم سليما .

تداول المجتمعون الأمر وقلبوه على وجوهه ، فقرروا الرجوع بأكملهم إلى دمياط ، وأن يجازفوا مجازفة عظيمة فيبعثون بالمرضى بحراً أمامهم ، وشرعوا فى تنفيذ تلك الخطة يوم ٥ أبريل ١٢٥٠م ، على أن المماليك ما لبثوا أن كروا عليهم كرّة عنيفة ، مما حمل لويس على الاستبسال رغم مرضه الشديد استبسالا جعل المماليك أنفسهم أول المعجبين به والمكبرين له .

---

(١) Mans. de Rothelin. p. 616—617.

(٢) جبشى : نور الدين والصليبيون ، الفصل الثانى .

١١

على أن الملك لم يستطع مقاومة المرض الذى أرغمه على مفارقة مكانه من القيادة وألزمه الفراش ، حيث ذهب هو وعدة من أكابر قومه إلى « تل منية أبي عبد الله » القريبة من « شرمساح » ، واعتصم ببيت امرأة من ضواحى باريس ، وحينذاك وفد على هذا البيت مملوك من قبل الجيش المصرى بقصد عقد الهدنة ، فأدخل على الملك ، وبينما هما يتحادثان إذا بصيحة تدوى فى المعسكر الصليبي قررت مصير الجند الفرنسيين بأجمعهم ، ووضعت حداً للمحادثة الجارية بين الملك لويس وبين رسول المماليك ، تلك هى صيحة جندى ليس فى العير ولا فى النفير يهتف بالجميع : « أيها السادة الفرسان ، استسلموا جميعاً نزولا على أوامر الملك ، ولا تكونوا سبباً فى ذبحه بيد العدو »[1] فآمن المعسكر الصليبي بأجمعه بهذه العبارة ، ولعل الأوضاع المؤلمة التى كانت ملمة بالجيش الفرنسى يومذاك هى التى جعلته يقبل هذه العبارة دون احتجاج ، ومن ثم وضعوا السلاح وأسلموا أنفسهم للماليك ، مما شد عضد المفاوض المصرى ، ورأى أن يتشدد فى الطلب ، وأن يعتبر الملك لويس أسيره . ولندع جوانفيل[2] يقص علينا هذا الفصل الختامى كما رواه له لويس

---

(1) Joinville : Memoirs, loc. Cit.

(2) Joinville : Memoirs, p. 212.

التاسع نفسه حيث قال « جاء لورد فيليب دى مونتفورت إلى الملك وقال له إنه رأى الأمير الذى كان يتناقش وإياه بشأن المعاهدة ، فإن كان الملك يحس بالقوة جاء به إليه وجدَّد المفاوضة ، نظرا لرغبة المسلمين فيها ، فتوسل إليه الملك أن يذهب لساعته لمقابلته ، ومن ثم ذهب لورد فيليب إلى الأمير المسلم الذى خلع عمامته وخاتمه من أصبعه دليلا على احترامه للعهد ، وفى هذه الأثناء حدثت نكبة لرجالنا ، ذلك أن جنديا خائنا اسمه «مارسيل» أخذ يصيح فى رجالنا « ألقوا السلاح أيها الفرسان ! » فظن الجميع أن هذه هى أوامر الملك ، فاستجابوا لها وسلموا المسلمين سلاحهم . فلما رأى الأمير [المملوكى] أن المسلمين قد أخذوا رجالنا أسرى قال للورد فيليب « إنه ليس من المناسب أن يمنح رجالنا هدنة وهو يراهم أسرى لديه » ، وقد أدت هذه الخيانة بين صفوف المعسكر الصليبى إلى سرعة تقرير مصير الحركة الفرنسية ، فطلب المماليك من لويس أن يتنازل لهم نهائيا عن القدس ، ولكنه أنكر على نفسه قدرة التصرف فيها ، إذ هى تابعة نظريا للإمبراطور فردريك الثانى ، وأخيراً استقر الأمان على أن يتسلم المصريون دمياط ، وأن يدفع الملك فدية تبلغ ثمانمائة ألف دينار صورية[1] ، فلما رضى الطرفان بذلك الاتفاق

---

(1) Lane-Poole : Hist of Egypt, p. 234.

اقتيد الملك أسيرا إلى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء ، وعهد إلى الطواشى صبيح — وكان مقربا من تورانشاه — بحفظه والعناية به وبراحته ، وشهدت هذه الدار التى لاتزال آثارها قائمة إلى اليوم ، والتى عنيت بها مصلحة الآثار المصرية — أقول شهدت من الأسرة المالكة الفرنسية كونت أنجو وكونت بواتو [١] .

ويلاحظ أن جماعة من الكتاب الغربيين يحاولون تصوير معاملة المماليك للويس فى أسره معاملة قاتمة الألوان ، وأنهم لم يراعوا مكانته بل اشتدوا عليه ، على حين أن كتاب تورانشاه — وسنذكره حالا — صريح فى حسن معاملة المصريين للقديس لويس ، ولم يكن يضير تورانشاه أن ينص على القسوة فى معاملته إياه ، لاسيما وهو فى عصر قلَّ أن يحترم فيه إلا من عرف عنه إيثاره العظيم للشدة والعنف ، واستعماله إياهما مع الجميع .

ولقد سرى هذا النبأ فى البلاد فاهتزت له بالبشرى ، وكانت فرحة الملك المعظم أجل من أن تصور ، فقد رحلّ إلى فارسكور ، وأمر فضرب بها الدهليز السلطانى ، وبعث بالبشرى إلى الشام ، فكتب بخط يده كتابا إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين بن يغمور جاء

---

(1) Cambr. Med. Hist., Vol., VI, p. 338.

فيه (١) « ... الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة — عم الله على الإسلام بركتها — فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال ، وفرّقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومكان سحيق . فلما كانت ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ،وقد حل بهم الخزى والويل ، فلما أصبحنا يوم الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس إلى المنية ، وطلب الأمان فأمنّاه وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته » ، والكتاب صريح فى الدلالة على المعاملة التى عومل بها

---

(١) لم يرد نص هذا الكتاب فى أبى شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ — ١٩٧، ولا فى ابن واصل ، ولكنه وارد فى العينى : عقد الجمان، ص ٢١١ — ٢١٢، والمقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

لويس التاسع فى أسره بدار ابن لقمان ، ولو كان غير ذلك لما وجد تورانشاه مانعا من الإشارة ، كذلك بعث إلى الأمير جمال الدين معطف الملك، فلبسه الأمير فى مجلس حضره أبو شامة صاحب كتاب الروضتين [١] ، وفى وصف هذا المعطف والموقف يقول الشيخ نجم الدين بن اسرائيل :

إن غفارة الفرنس التى جا ... ءت حباءً لسيد الأمراء
ببياض القرطاس لوناولكن ... صبغتها سيوفنا بالدماء [٢]

وكتب الأمير جمال الدين إلى مولاه تورانشاه كتابا يشكر له فيه عطيته إياه ، استهله بقوله :

أسيِّد أملاك الزمان بأسرهم ... تنجَّزت من نصر الإله وعيده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ... ويلبس أسلاب الملوك عبيده [٣]

* * *

اطمأنت خواطر المماليك إلى الوضع الحربى الجديد بعد أن قبل الملك لويس دفع الفدية وتسليمهم دمياط ، إذ أن ذلك ينطوى على الفشل المطلق لأهداف الحملة الصليبية السابعة ، غير أنه جرى فى

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ ، الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٧ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٢٢ الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .

أثناء تسليم دمياط حدث جد خطير فى تاريخ الدولة الأيوبية ، وهو حدث ملطخ بالدماء ، أنهى الدولة بعد أن ظلت فى دست الحكم — منذ تولى صلاح الدين شئونها — مدة تقرب من الثمانين عاما ، أما هذا الحادث فهو مقتل تورانشاه[١] .

ذلك أن الملك المعظم كان شابا أهوج أرعن ، فيه اندفاع وعدم ضبط ، تثيره الكلمة فلا يستطيع امتلاك زمام نفسه ، وقد أساء السيرة مع جميع رجال الدولة ، فلم يجد من أحدهم عطفا عليه فى محنته أو حين أخذ المتآمرون فى التآمر ضده ، وبدت منه — كما يقول احد المؤرخين[٢] — « خفة وطيش ، وأمور خرج بسببها عليه مماليك أبيه » وهم عصب الدولة ، لاسيما بعد أن تفرق الأكراد — منذ أيام أبيه — عن أبيه الذى رعى للبحرية حقهم[٣] ، كما أنه لم يراع يد شجر الدر عليه ، فأسرف فى تهديدها ومطالبتها بمال أبيه ، فلا عجب إذا كانت هى العامل الأول فى تحريك الصالحية عليه ، رغم أن أباه هو الذى اصطفاهم وأوجدهم ؛ لكن الواقع أنهم كرهوا منه عدم اعترافه بجميلها عليه ، وارتكب كذلك من الكبائر ما لم يعرف قط عن أبيه ، مما حرك النفوس ضده[٤] ، ووجد الكارهون له

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ ، أبو الفدا المختصر ص ١٣٨ ، المقريزى : الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .

(٣) المقريزى : الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

خير مفرّج عن حقدهم عليه فى شخص بيبرس البندقدارى ، فقد ضربه بالسيف — وهو بفارسكور — ضربة بانت منها أصابعه ، فالتجأ إلى أحد الأبراج ، فتتبعه المماليك البحرية وأضرموا النار فى البرج ورموه بالنشاب ، فألقى بنفسه من علٍ وفر إلى البحر وهو يقول « ماأريد مُلْـكا ، دعونى أرجع إلى الحصن[١] ، يا مسلمين أما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ؟ » فلم يلب أحدما رجاءه، بل سبحوا خلفه فى الماء وقطعوه بالسيوف ، فمات جريحا حريقا غريقا[٢] .

نجحت مؤامرة شجر الدر بالاتفاق مع المماليك البحرية الذين بايعوها وهى « المستعصمية الصالحية[٣] ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين » .

١٢

تطوّرت الأحوال بعد مقتل تورانشاه[٤] ، واستحواذ شجر

---

(١) يقصد حصن كيفا ، الذى كان أبوه قد رتبه عليه وأقره به ، راجع المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) انظر فى ذلك كله ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٧١ ب ، الروضتين لأبى شامة ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢ ، والذيل على الروضتين ، ص ١٨٥ ، Stevenson : Crusaders in the East, p. 332.

(٣) راجع مناقشة الدكتور زيادة لهذه النسبة فى السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، حاشية رقم ٤ .

(٤) قد يكون من الملائم فى هذا المجال أن نشير إلى الناحية الأدبية التى كان =

الدر على مقاليد الحكم ، فقد طمع بعض كبار المماليك ، أمثال فارس الدين أقطاى[١] الجدار ، الذى كانت إليه تقدمة المماليك البحرية[٢] ، فى أن ينالوا لأنفسهم الفدية من لويس[٣] ، لا سيما وأنه لم يكن دفعها كلها ، ذلك لأن الفترة التى تولاها تورانشاه لم تعد الثمانين يوما[٤] . ورأى الصليبيون أن هذا الوقف من جانب الصالحية إنما هو ثغرة فى صفوف أولى الأمر بالبلاد ، فأرادوا اغتنام هذه الفرصة وعدم تسليم دمياط ، كما تم الاتفاق بين الملك لويس وبين تورانشاه[٥] من قبل ، بل ذهبوا أبعد من ذلك إذ رفضوا هم أنفسهم

= عليها تورانشاه « فقد أدركته حرفة الادب » على حد قول أحد المؤرخين ، حيث يذكر أيضا (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٢) أنه حين قدم مصر ألقى ابن الدباجية تاج الدين أمامه قصيدة قال فيها :

كيف كان القدوم من حصن كيفا   حين أرغمت للأعادى أنوفا

فأجابه تورانشاه على الفور ومن نفس البحر والروى :

الطريق الطريق يا ألف نحس   تارة آمنا وطورا مخيفا

بل إن لدينا شهادة مؤرخ ثبت وشاهد عيان ، ذلك هو القاضى جمال الدين بن واصل ، إذ يقول « جرت بينى [ابن واصل] وبينه [تورانشاه] مباحثة فى أنواع شتى من العلوم والآداب » ، راجع مفرج الكروب ، ورقة ٣٦٧ ب .

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

(٣) Migne. Dict des Croisades, p. 422.

(٤) المقريزى : الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٥) Manus. de Rothelin, p. 616 — 617.

طلب لويس ذاته حين طلب منهم ذلك الطلب، وكان وسيط الاتفاق بين الطرفين المصرى والفرنسى : الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الذى كان أثيرا عند لويس كما ينص على ذلك العينى[١] ، وكانت كفة الجانب المصرى راجحة لعودة المماليك جميعهم صفا واحدا ويدا واحدة ، ولذلك اتفق على أن يدفع لويس نصف الفدية نقداً عاجلا ، وأن يتسلم المماليك دمياط ، ومن ثم يسمح له وهو وكبار رجال المملكة بالرحيل إلى فرنسا ، أما بقية رجال الجيش وكونت بواتو فيظلون فى أسر المصريين حتى تستوفى مصر النصف الباقى[٢]. وعلى أية حال فقد تمكن الفرنسيون من دفع النصف ، والفضل فى ذلك كله راجع — كما يقرر لين بول — إلى الملكة مرجريت دى بروفانس[٣] ، ويرجعه البعض الآخرون إلى روبرت بطرك بيت المقدس[٤] .

ووُزع الأسرى على المحلات المختلفة التى عينها لهم المماليك ، ولم يبق هناك سوى الملكة مرجريت والبحارة الجنوية والبيازنة الذين غلبت عليهم الصفة التجارية ، ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ، ونظروا إلى مصالحهم التجارية وقدموها على كل شىء ، وإنه ليصدق

(١) العينى : عقد الجمان ، ص ٢١٣ ، وراجع فى ابن واصل : مفرج الكروب ص ٣٧٣ ب ، محاولاته مع الملك لويس بعد أسره .

(٢) Joinville : Memoirs, p. 229.

(٣) Lane — Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 250.

(٤) Grousset : Histoire des Croisades, t. III, p. 489 — 490.

فى وصفهم ما يقوله بعض الكتاب عن شعار البنادقة[١] من أنهم «تجار بنادقة أولا ، ثم مسيحيون ثانيا » Siamo Veneziani, poi Chirstiani لذلك نراهم يقررون فيما بينهم الرحيل الفجائى أو الهرب من العواقب الجسيمة الخطر على لويس والملكة التى كانت تعانى آلام الوضع[٢]، بل لعلهم كانوا مقدرين لتلك العواقب، ولكنها لم تكن تعنيهم قدر عنايتهم بالنجاة بأنفسهم ، وليكن بعد ذلك مايكون على رأس الملك والملكة التى علمت بتلك الأخبار المؤلمة ، فاستدعت رؤساهم فى حجرتها الخاصة حتى اكتظت بهم ، وجرى بينها وبينهم حديث .

كان جوانفيل أمينا فى نقله هذه الحودث إلينا ، حيث ذكر أنها قالت لهم « أيها السادة ، استحلفكم بالله ألا تغادروا هذه المدينة [تعنى دمياط] لأنكم ترون أنها لو ضاعت من أيدينا لكان فى ذلك هلاك سيدى الملك هلاكا أبديا ، وكذلك الحال إزاء جميع الأسرى الذين معه ، وإن لم تحرك تلك الحال منكم عاطفة ما فلا أقل من أن تأخذكم الشفقة على تلك المخلوقة البائسة الضعيفة الراقدة هنا أمامكم[٣] ، وانتظروا حتى أبل من مرضى » ، فأجابوها « يامولاتنا ، ماذا فى قدرتنا عمله

(١) Davis : The Invasion of Egypt, p. 24.

(٢) Joinville : Memoirs, p. 234 et seq.

(٣) تعنى نفسها ، إذ كانت تعانى آلام الوضع .

إننا نوشك أن نموت جوعا فى هذه المدينة ! ، فذكرتهم بأن الجوع لا ينبغى أن يحملهم على الرحيل ، لأنها ستيسر وجود الطعام فى السوق وبيعه ، وستجعلهم جميعا يقيمون على حساب الملك(١) ، وبذلك استطاعت إقناعهم بالبقاء حيث هم حتى يتم ترحيل الملك ومن اتفق على ترحيله معه .

ذلك موقف غير مستغرب من جماعة حرفتها التجارة وهمها الأول الكسب المادى ، وكان الواجب يقتضى من لويس التنبه إلى هذه المسألة منذ البداية ، وألا يرحب بمعونتهم إياه أو يعد وقوفهم إلى جانبه نصراً له ، وإن العامل الحقيقى الذى يدعوهم الآن لركوب هذا المركب هو الذى دعى البنادقة لعدم الترحيب فى مستهل الأمر بالانضمام إلى صفه فى محاربة مصر ، إذ كانوا ينظرون أولا وقبل كل شىء إلى مصالحهم الذاتية ، ولا يعنيهم شىء سواها .

على أية حال تم الاتفاق بين الأمير حسام الدين محمد أبى على وبين الملك لويس التاسع على وجوب تسليم دمياط ودفع نصف الفدية المطلوبة ، وتم ذلك يوم الجمعة (٣ صفر — ٦ مايو ١٢٥٠م) ورفع على سور المدينة ، العلم السلطانى ، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق ، فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهراً

(١) Joinville : Op. Cit., p. 235.

وتسعة أيام [١] ، وكانت هذه الوقعة أعظم من الأولى بأضعاف مضاعفة [٢] ، وما لبث المماليك أن أطلقوا سراح أخى الملك ومن فى أسرهم من جند هذه الحملة ، وكذلك من أسروهم منذ أيام العادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب [٣] ، والفضل فى هذا راجع إلى مهارة مؤرخ الحملة الفرنسية الذى لانحب أن نختم هذه الأسطر دون أن نقارن بين إخلاصه للصالح العام وبين مطامع فرسان المعبد المادية ، حيث وجدوا أن الفدية تنقص ما يقرب من ثلاثين ألف دينار صورية ، فأشار جوانفيل على الملك باستدانتها من الداوية فقال له أحدهم « يا لورد جوانفيل ، ليس فيما أشرت به على الملك شىء من الخير أو العقل ، لأنك تعلم أننا أقسمنا على ألا نعطى ما يصلنا من الأموال إلا لمستحقيها » ، واشتد الجدل بين الفارس المسيحى الذى من مبادئه الفقر والطاعة ، وبين المؤرخ شدة تتبين مما يعقب به جوانفيل على ذلك « بأنه جرت بينى وبينه كلمات قارعة شديدة » ، على أن جوانفيل استطاع بالقوة أن يأخذ ما أبت عليهم رحمتهم التنازل عنه [٤] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٧٤ ا ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٢) ابن واصل : شرحه ، ص ٣٧٤ ا .

(٣) المقريزى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) Joinville : Chronicles, p. 229 — 231.

تم تسليم القدر المتفق عليه من الفدية ، وحينذاك حمل الملك ومن معه على باخرة جنوية أقلعت به إلى عكا ، فكان وداع المصريين له هذه الأبيات التي نظمها جمال الدين بن مطروح حيث يقول :

قل للفرنسيس إذا جئته — مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى — من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها — تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم — ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم — بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهمو — إلا قتيل ، أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها — لعل عيسى منكمو يستريح
إن يكن «الباب»[1] بذا راضيا — فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة — لأخذ ثأر ، أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها — والقيد باق والطواشي صبيح[2]

* * *

بهذا ختم الدور الأول من الحملة الصليبية السابعة التي وقعت في ختام النصف الأول من القرن الثالث عشر على مصر ، وانتهت بمعركة المنصورة التي حفظت مصر والشام والعراق من أن تجتاحها القوات الفرنسية وتحيلها إلى إمارات صليبية .

---

(١) « الباب » يقصد بها بابا رومية .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ، ص ١٣٧٠ ب .

١٣

غادرت الحملة الصليبية مصر .

ولم يكن معنى ذلك أن الرواية قد تمت فصولها ، فقد انطوى الفصل الأول بهزيمتها فى المنصورة ، واستظهار جماعة المصريين عليها لذلك كان لابد للقائمين بشئون أمور الحملة — لاسيما الملك لويس — من أن يثبتوا للملأ من أهل فرنسا والغرب أنهم لا يعترفون بتلك الهزيمة النكراء ، فكان من أذيال ذلك الفصل الثانى ، وكان مسرحه فلسطين . أجل فلسطين أرض السلام قُدِّر لها أن تكون مسرح حرب يثيرها الغرب الطامع فى الشرق :

فلسطين يادار النبوة هكذا   تصير جنان الخلد دار جهنم ؟

مهما يكن الأمر فقد كان ارتداد الحملة الفرنسية عن مصر هزيمة ساحقة للقوات الفرنسية ومن صحبها من القوات الأوربية ، كالبيازنة والإنجليز ، بل إن عدم استطاعتها مجاوزة المنصورة — بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن منذ وصولها إلى أرض الدلتا سنة ١٢٤٨ — دليل واضح على أنها جلبت على نفسها الدمار والعار معاً ، وعرّضت بقية القوات الفرنجية فى بلاد الشام لخطر الزوال ، نظراً لمتاخمتها قوات إسلامية تابعة لمصر . والملاحظ عامة أن كل حملة صليبية وجهت إلى الشرق — بعد حملة ١٠٩٧ [١] — كانت تؤدى فى النهاية

(١) حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ١٥ وما بعدها .

— عن غير قصد طبعا — إلى إضعاف الأمراء الصليبيين والإمارات اللاتينية فى الشرق الأدنى[1] ، واستمر هذا الضعف يزداد باستمرار مجىء الحملات المختلفة ، وكأنها تحفر قبرها بيدها .

على أن حملة لويس وجدت فى بداية الأمر معاونة وتأييداً من بعض أمراء الفرنجة بالشام ، ذلك أنهم كانوا يظنون — وبعض الظن مهلكة — أن مصر لن تستطيع المقاومة نظراً للنزاع الناشب بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبين عمه بحمص ، ولشدة معاملة السلطان لمن حوله ، وذهب بهم الظن مذهباً بعيداً عن الحقيقة ، وجاوز الواقع حين صور لهم أن فى استطاعتهم الاعتماد على هذه الكراهية وعلى وقوف الأقباط إلى جانبهم ، والواقع أن هذا الظن أوردهم أسوأ الموارد ، فلم يجدوا ما كانوا يؤملون ، وطاشت أحلامهم بدداً ، وحينذاك أفاقوا على الحقيقة المرة ، وأى حقيقة أمر وأنكى من أن يجدوا كبيرهم — وهو لويس التاسع — أسيراً هو وإخوته وكبار مملكته ، والقيد فى يديه وقدميه هو ومن معه ، وتتحكم فيهم جماعة المماليك البحرية ، ويصبحون غرضاً يرمى بالسهام ، ولا يستطيعون دفع ما حاق بهم من الأخطار ، وأدرك أولئك الأمراء الفرنجة أن النوبة قد اقتربت منهم ، وأنهم سيكونون الهدف التالى للقوات المصرية بعد أن أذاقت الفرنسيين مرارة الهزيمة رغم جيشهم العظيم

---

(٢) حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٠ — ٣٧ .

وأسطولهم الفخم ، وجعلتهم يدركون خطورة مغبة الإقدام على تلك المحاولة الفاشلة التى أقدموا عليها ، غير حاسبين لبراعة الفرسان المصريين حسابا ، بشهادة رجالهم هم أنفسهم (١) .

* * *

أقفلت السفن بالملك لويس وباروناته إلى عكا ، وقد رجعوا من الغزو بالهزيمة النكراء ، وفقدوا هيبتهم فى نفوس الأهلين فى كل مكان ، وأدركت الجاليات الأوربية المقيمة بالوادى أنها لن تستطيع التفاخر بأمجاد البطولات الحربية لفرنسا أو لغيرها ، إذ العهد جد قريب بفشل جميع محاولات أوربة فى هذا السبيل ، فمنذ ثمانين سنة لم تستطع قوة فرنسا وإنجلترا معاً أن تسلبا بلاد فلسطين من سلطان مصر صلاح الدين ، بل إن الجفوة سرعان مادبّت بين فيليب أغسطس وبين ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا النرمندى ، كما أنه لم يعد لملك بيت المقدس ما كان له فى بداية الأمر من الهيبة والسلطان على بقية أمراء الفرنجة فى الشام ، كما حدث ذلك فى أمر « جى دى لوزنيان » ، وكيف رده أهل صور رداغير كريم ، لم يخف على أحد ما حتى على الكتاب المسلمين (٢) .

على أن لويس التاسع وجد ما عوضه عن هزيمته بمصر فى حسن

---

(١) Davis : The Invasion of Egypt. p. 18.

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٠٢ .

الاستقبال الذى قوبل به من جميع طبقات الأهالى : مدنيين كانوا أم دينيين ، فقد انعقدت القلوب على محبته ، ولعل البلوى التى مرت به زادت العطف عليه ، ولعل هذا الترحيب مرجعه أن هذه الجماعات الأوربية فى بلاد الشام لم تكن تظن نجاته من أسره بعد هزيمته الشنعاء فى المنصورة ، وبعد ما ترامى إليها من الأخبار المروعة بشأن مصير أخيه كونت دارتوا ، ولذلك عدت هذه الجاليات فكاكه من الأسر ووصوله سالما إلى عكا نصراً للمسيحية ببقائه حيا حرا ، وهو من هو فى أخلاقه وسجاياه :

وندعو كريما من يجود بماله ومن يبذل النفس النفيسة أكرم

* * *

كان لويس يطمع أن يذهب إلى عكا فتوافيه هناك إمدادات صليبية جديدة من أوربة يشتد بها عضده ، فيستطيع أن يمحو عار المنصورة ، ولكنه بقى ما بقى من الزمن الطويل فى فلسطين منتظرا — على غير جدوى — هذه القوات التى لم تحضر له أبدا ، ولم يكن عند فرنجة الشام استعداد تام للحرب ، زِدْ على ذلك أنهم لم يكونوا خالصى النية فى الاشتراك فى حرب ضد جيرانهم المسلمين بعد أن شاهدوا فشل الحملات الأوربية المتتالية ، وقدرة مصر على وجه الخصوص على صدّها وهزيمتها ، ثم إن هؤلاء الفرنجة المحليين طمعوا أن يكون مقدم لويس التاسع إلى عكا واضعاً حداً للمنازعات المحلية التى كانت

بين بعضهم والبعض الآخر ، كالقتال الذى جرى فى شوارع المدينة قبل بضعة أسابيع من مجىء لويس بين البيازنة والجنوية ، وأدرك من لا لهم ناقة فى هذا النضال ولا جمل أن الخير معقود بمقدم لويس ، عسى أن يستطيع فرض شخصيته على المتنازعين فيقر السلام بينهم ، ولعل هذا كان أحد الدواعى التى دعته لطول البقاء فى فلسطين كما سنرى .

١٤

على أن مجىء لويس إلى عكا جعله فى مأزق حرج ، فهو بين داعى الرحيل إلى فرنسا استجابة لطلب الملكة الوالدة ، وبين وجوب البقاء حيث هو مراعاة للصالح الصليبي العام ، أما الملكة « بلانش » فقد كتبت إليه تخبره بطمع الإنجليز فى الوثوب على المملكة فى غيبته ،

لم يشأ لويس أن يبت فى تقرير بقائه أو رحيله برأى قاطع ، دون الاستعانة بمشورة رجاله الذين جمعهم لهذا الغرض ثلاثة آحاد متتاليات ، واستعرض معهم الأخطار الداخلية والخارجية ، تاركا لهم تقليب الحال على مختلف وجوهها ، عسى أن يصلوا إلى حل يراعون فيه مصالح فرنسا الداخلية ، والمحافظة على سلامة الإمارات الفرنجية بالشام .

عقد أول اجتماع بين هؤلاء المستشارين وبين الملك يوم ١٩ يونيو سنة ١٢٥٠ ، وقد ترك لنا « جوانفيل » صورة قلمية لهذه

الاجتماعات إذ كان حاضرها ، ومنها نتبين أن القوم بأجمعهم تقريباً كانو يؤثرون العودة إلى فرنسا ، بل إن أخوى الملك كانا من أنصار هذه الفكرة ، فقد بعث لويس فى طلبهما وفى طلب كبار من صحبه من أشراف فرنسا ، وخطبهم قائلا « أيها السادة ، إن سيدتى الملكة الوالدة قد بعثت إلى ترجونى أن أبادر بالعودة إلى فرنسا لما يحيق بمملكتى من الخطر ، إذ لم ينعقد السلم بينى وبين ملك انجلترا ، وليست بيننا هدنة ، ولقد أخبرنى أهالى هذه البلاد [يعنى فلسطين] أن ضياعها مرهون برحيلى عنها . لذلك أتوسل إليكم أن تفكروا فى الأمر مليا ، ولخطورة هذه المسألة سأمهلكم ثمانية أيام بدايتها اليوم ، تقلبون الأمر فيها على وجوهه » .

وفى أثناء المدة المضروبة يكشف لنا جوانفيل القناع عن المحاولات التى كانت تبذل من وراء ستار لحمل لويس على العدول عن فكرة البقاء فى الأراضى المقدسة إن فكر فى ذلك تفكيراً جديا ، ووسيلة القائمين بتلك المحاولة هى إغراء المقربين إلى الملك بالاستعداد للرحيل ، حتى يجد لويس نفسه أمام الأمر الواقع وحيداً لا سند له ولا عضد يؤيده فى الإقامة ، وفاتهم ما انطبع عليه من الإصرار الشديد على القيام بما يرى فيه خيراً للصالح المسيحى ، حتى ولو أدى ذلك إلى هلكه ودماره . ومهما يكن الأمر فقد انعقد المؤتمر يوم الأحد التالى للمرة الثانية ، وانعقد إجماع القوم على

وجوب الرحيل فى الحال ، وتكلم لورد و جى دى موفوازان ، نيابة عن المجتمعين ، وخطب قائلا « مولاى ، إن أخويك وكبار رجالاتك الملتئم جمعهم هنا قد تدبروا أمر دولتك ، وتبين لهم أنك لن تستطيع الإقامة حيث أنت وحيث نحن ، وذلك لأن الفرسان الذين جئت بهم لم يبق منهم غير مائة فقط ، بعد أن كانوا ألفين وثمانمائة فارس ، ولذلك فإننا نمحضك الرأى بأن نرحل على جناح السرعة . وأن تنتقم ممن فى أسرك من أعداء الرب . »

لم يكن المجتمعون فى الواقع ليعنيهم حفظ الأمور سليمة فى فرنسا بقدر ماتعنيهم مصالحهم الذاتية ، ولم يكونوا رجالا ذوى مثل عليا كلويس التاسع ، الذى كان الواجب يقتضيه الالتفات إلى هذه المسألة وإلا كبد نفسه متاعب جمة ، فهؤلاء الأمراء جميعا، حتى إخوته أنفسهم، يهمهم أن يعودوا إلى فرنسا مسرعين جهد ما أمكن بعد أن فشلت ريح الحملة ، وقد كان لهم غنية فى وطنهم لو أنهم استطاعوا إحراز النصر على المماليك فى مصر وإخضاعها لسلطانهم ، أما وقد بلوا الصالحية والجمدارية فقد تبين لهم خطل الحرب ، ولم يكن بيت المقدس ليعنيهم بقدر مايعنى لويس ، فأولئك قوم إقطاعيون يهمهم عرض الحياة الدنيا .

بانت للملك نوايا رجاله الذين لم يتورعوا عن إماطة اللثام عن حقيقة مبتغاهم ، ولعل لويس تعجب فى هذه اللحظة بالذات كيف

بحملهم متاع الدنيا على الانصراف عن نجدة الأراضى المقدسة ، والموت عند لويس فى هذه البقعة أحلى مورداً :

يانفس إن لم تقتلى تموتى   إن تسلى اليوم فلا تفوتى
أو تبتلى فطالما عوفيت   هذه حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت   إن تفعلى فعلهما هديت
وإن توليت فقد شقيت

أخذ الملك يسأل المجتمعين واحداً بعد واحد ، فكان القول ماقاله لورد « جى دى موفوازان » ، ولم يشذ عنهم سوى « چون كونت يافا ، وجوانفيل » .

اشتد الجدل بين جوانفيل وبين المجتمعين شدة لم تستطع رغم عنفها أن تزحزحه عن مكانه ، فلما رأى الملك ما آل إليه السادة الأشراف من الحدة والغضب — حتى لقد تفوه بعضهم بالسب — لم ير الملك بداً من فض الاجتماع ، عـــلى أن يعطيهم رأيه بعد ثمانية أيام .

انعقد المؤتمر يوم الأحد ٣ يوليو ، وتكلم الملك فقال : « أيها السادة ، إنى لأشكر أولئك الذين نصحونى بالعودة إلى فرنسا ، كما أشكر من نصحونى بالبقاء هنا ، على أننى أظن أن بقائى حيث أنا لن يؤدى إلى ضياع مملكتى ، لأن لدى سيدتى الملكة الوالدة كثيرين من القادرين على الدفاع عنها ، غير أن أشراف هذه الأرض

[فلسطين] أخبرونى أن فى رحيلى ضياع مملكة بيت المقدس ، إذ لن يجرؤ أحد ما على الإقامة بها بعد مغادرتى إياها ، ومن ثم صممت على ألا أغادر مملكة بيت المقدس التى قدمت لحراستها واستردادها[1] » .

وبهذا قطع الملك قول كل معترض ، وقضى فشفى ما فى نفوس الأقلية ، ولم يدع لذى إربة فى القول قولا ، على أنه ترك الحرية فى الرحيل لفرنسا لمن شاء ، أو البقاء معه ؛ فكان أول المغادرين أخواه شارل دانجوا وألفونس كونت بواتيه . أما من بقى إلى جانب الملك فقد أخذ الملك فى دفع نفقاتهم من جيبه الخاص ، وكتب رسالة إلى الأمراء وذوى المكانة فى كل ناحية ، يدعو لتجديد القوى لحرب صليبية جديدة .

طالت إقامة لويس فى الأراضى المقدسة أكثر مما هو متوقع ، إذ استمرت أربع سنوات سويا ، ولقد نعجب لطول هذه المدة التى لا مبرر لها ، لكن الستر ينكشف عن الدوافع الحقيقية إذا فتشنا عنها خارج دائرة الصليبيين ، وأعنى ذلك الصراع الخفى حينا والظاهر أحيانا ، الناشب بين رجال الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وهو نزاع لابد لنا من الإشارة إليه فى هذا المجال ، لنعرف أن لويس كان يطمع أن تشتد الجفوة بين مصر ودمشق ، وأن تزيل إحداهما

(1) Joinville: Memoirs of the Crusades, p. 240 — 242, 243 — 244.

الأخرى فيخلو له الجو حينذاك لتحقيق أهدافه وضرب القوة الإسلامية الباقية ، ولعل أصدق ما يوضح هذه الفكرة هو أنه لم يجب برأى قاطع حين عرض عليه الناصر صاحب حلب الاتفاق معه ليكونا يداً واحدة ضد المماليك البحرية ، على أن يسلمه الناصر مدينة بيت المقدس(١) .

على أنه ينبغى لنا أن نقول إن هذه الحرب لم تكن بين مصر والشام كدولتين ، ولكن بين مطامع شخصية بين الناصر يوسف وبين السلطان ، وعلى ضوء هذه الحقيقة يجب أن ندرس ما جد فى تلك الفترة من الصراع ، وقد فات لويس تقدير هذه الحقيقة ، مما لم يجعل للإقامة الطويلة فى فلسطين أية جدوى مرجوة .

١٥

كانت حلب تحت حكم الناصر يوسف من الفرع الأيوبى ، وقد غضب لإزالة بيته من مصر نتيجة مقتل تورانشاه تلك القتلة المروعة ، ولم يعد يعترف بالوضع الجديد الذى حدث ، بل إنه رأى نفسه أولى من غيره بتولى الحكم ، وإذا كانت للماليك سلطة فإن هذه السلطة لا ترقى إلى الجلوس فى دست الإمارة بأية حال من الأحوال ، ولذلك كانت مهمة لويس فى هذه الفترة بالذات هى ترقب الأمور

(١) Ibid., p. 245 — 246.

عن كثب لينضم إلى أحد الفريقين عساه يعوض ما فاته من حملته المشئومة.

لم يفت الناصر تقدير هذه الناحية عند لويس، فكتب إليه يسأله أن يقف إلى جانبه فى محاربته المماليك البحرية انتقاماً منهم لقتلهم تورانشاه، وترددت الرسل بين الأمير المسلم وبين الملك الصليبى، الذى أنفذ من قبله رسوله Yves، وكان متقناً اللسان العربى إتقاناً تاماً، ولكن لويس اضطر للوقوف على الحياد، خوفاً على الفرنسيين الذين لا يزالون فى أسر مصر من أن يفتك بهم المماليك. إذا علموا بهذا الاتفاق بينه وبين صاحب حلب، وكان رده أنه لا يستطيع الوقوف إلى جانبه، حتى يعرف إذا كان أمراء مصر مستعدين للتكفير عن فصمهم المعاهدة المبرومة بينه وبينهم [١].

كانت دمشق حينئذ تحت سلطان أسرة كردية من المماليك الأيوبيين تعرف « بالقيمرية »، فما طالعتهم أخبار مصر وانتقال الحكم فيها إلى شجر الدر التى مالبثت أن تنازلت عنه لزوجها الجديد حتى أخذتهم سورة الغضب، وفكروا فى وجوب إرجاع الأمور إلى نصابها، وأبوا أن يخرج الملك من الأسرة الشرعية ؛ وبدأت ظواهر الحركة الجديدة من التمرد على إقامة شجر الدر فى الحكم، حين وصل رسول من قبلها إلى دمشق لاستحلاف من بها الأمراء، فلم يجبه أحد ما من الأمراء القيمرية، ولا الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة، وكان تورانشاه قد أمره بها وهو فى طريقه إلى مصر بعد موت أبيه واستدعاء شجر الدر إياه.

---

(1) Joinville : Op. Cit., p. 245 — 246, 251.

تلفت الأمراء القيمرية فى دمشق حولهم عساهم يجدون قوة يستعينون بها على تأديب المماليك البحرية الذين فتكوا بتورانشاه ابن مولاهم الراحل ، والذين أقروا أن يساق العرش إلى امرأة ، مما أغضب الخليفة ذاته ببغداد ، حتى لقد بعث إليهم : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا »[1] ، وترتب على هذا الوضع أن امتنع الأمراء القيمرية عن الحلف لشجر الدر ، وكتبوا بذلك إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد صاحب حلب ، يحثونه على المسير إليهم ليسلموه دمشق[2] ، وطبيعى أن يرحب الناصر يوسف بهذه الدعوة ، ولا مشاحة إذا عجل بالنهوض لما هو كامن فى جوانحه ، وبادر فزحف على دمشق ودخلها يوم ٩ يوليو ١٢٥٠ (١٠ ربيع الثانى) دون قتال ، بفضل خيانة الأمير ناصر الدين أبى المعالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس ، وتسلم صاحب حلب قلعة دمشق ، واستولى على ما بها من الأموال ، وأخذ فى تفريقها على الأمراء القيمرية وغيرهم .

ترامت هذه الأخبار إلى مصر فأدت إلى حدوث كثير من الاضطرابات ، لجدد الأمراء والمماليك الأيمان لشجر الدر التى بادرت إلى الزواج من الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى بعد أن خلعت نفسها من الحكم ، ولعلها فعلت ذلك لكى تتقى غضب بغداد

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٦ — ٣٦٧ ، وراجع أيضا دائرة المعارف الاسلامية مادة "Al-Nasir" .

أولا ، حيث كره الخليفة المستعصم بالله أن تتولى امرأة شئون الحكم فى مصر ، أضف إلى هذا أن تولى أيبك الحكم فيه تقريب للهوة الفاصلة بين المماليك البحرية وبين الذين يؤثرون أن تظل الولاية فى البيت الأيوبى ، وكان أيبك قد انتقل إلى السلطان الصالح نجم الدين[١] .

على أن تولية أيبك التركمانى كانت خير معوان لدعاة فكرة وجوب إرجاع السلطنة إلى البيت الأيوبى ، أياً كان هذا الشخص ، ما دامت صفات السلطة متوفرة فيه ، ولذلك كان مجيئه للحكم تأييداً لدخول الناصر يوسف ، بل إن المماليك البحرية شعروا بهذا فأجمعوا على أنه « لا بد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ، ليجتمع الكل على طاعته ، ويطيعه الملوك من أهله » ، فوقع اختيارهم على صبي صغير[٢] .

على كل حال لا نحب أن ندخل بالقارىء فى تفصيلات دقيقة ، ولكننا نوجز فنقول إن الناصر يوسف — صاحب حلب — قد استولى على دمشق بفضل الأمراء القيمرية ، واجتمع حوله جميع أفراد البيت الأيوبى ، صغيرهم وكبيرهم[٣] ، وكانت ساعة فاصلة

(١) فيما يتعلق به راجع السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، وحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٧٦ ا .

(٣) راجع أسماء من انضموا إليه فى زحفه على مصر فى المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٢ ، ابن واصل ، شرحه ، ص ٣٧٩ ب .

فى تاريخ هذا البيت الذى أسسه صلاح الدين منذ أكثر من ثمانين سنة، وخرج الجيم قاصدين مصر أو على الأصح محاربة المماليك البحرية.

زحف الجيش الأيوبى الشامى على مصر عن طريق شبه جزيرة سينا، حتى بلغ «العباسة» من أعمال مديرية الشرقية، والواقع أن خبر هذا الزحف أزعج المماليك البحرية غاية الإزعاج، فأعلنوا مرة أخرى أن مصر للخليفة المستعصم بالله العباسى، وأن الملك المعز أيبك نائبه بها، وزاد المعز بأن سار أمام الأشرف مظفر الدين كحاجب له، كما نودى فى القاهرة — كذبا — أن الصلح قد انتظم بين مصر وبين صاحب الكرك، عسى أن يؤدى ذلك كله إلى توقف الناصر عن الزحف.

غير أن شيئا من ذلك كله لم يؤد إلى ما كان القوم يؤملونه، وحينذاك لم يجد الجيش المملوكى بدأ من التحرك، فسار حتى بلغ الصالحية، واقترب جيش الناصر يوسف من العباسة، والتحم المصافان، وبدأت كفة الشاميين ترجح على المماليك، ثم مالبثت أن شالت لكثرة الأمراء الذين فارقوه وقت القتال وانحازوا إلى صفوف المعز، وأظهر الفارس «أقطاى» فى هذا اليوم من البسالة والفروسية ما جعل النصر دانياً للجيش المملوكى، وساق المعز يريد الأطلاب، فأسر الكثيرين من رجالات جيش الناصر، وكاد الشريف المرتضى أن يهلك فى هذا اليوم لولا أن أسعفه نسبه،

فصاح « أنا رجل شريف ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم» فكانت نجاته فى ذلك القول [١] .

دخل المعز القاهرة ومن خلفه الأسرى الأيوبيون ، وأقيمت معالم الزينة والأفراح ، وأخذت المدينة زخرفها ودقت البشائر .. على أن الرواية لم تتم عند هذا الحد فصولا ، فقد استطاع الناصر يوسف أن يرجع إلى الشام سليما فى نفسه ، مجروحاً فى هيبته وكرامته وجيشه ورجاله ، وهنا يبدأ دور جديد من هذه الرواية ، يدخل فيــه لويس التاسع ذاته ، وتتشابك المصالح الصليبية بالمصالح الأيوبية والمملوكية .

° ° °

لقد رأينا آنفا كيف أن الملك لويس لم يشأ أن يمد يد المعونة إلى الناصر يوسف حين أغراه على ذلك الأمر فى بدء نضاله ضد شجر الدر والمعز أيبك وبقية المماليك البحرية ، والواقع أن لويس كان حكيما فى هذا التصرف ، فقد استطاع بهذه السياسة السلبية أن يفتك من الأسر كثيراً من الفرسان ورجال الجيش الفرنسى الذين كانوا لا يزالون فى قبضة المصريين ، ولم يكن أمام المماليك بطبيعة الحال إلا أن يجيبوا لويس مطالبه ، حتى لا يحملوه على مناصرة عدوهم ، وبذلك استطاع الملك أن يستغل فرصة الخلف الواقع بين الأمراء لمنفعته .

---

(١) راجع ذلك كله فى السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٢ — ٣٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦ — ٩ .

على أن المماليك عادوا من جديد يعرضون على لويس الخروج من فلسطين والوقوف إلى جانبهم لقاء تسليمه بيت المقدس ، رغم أنها كانت في يد الناصر يوسف ، « ومال الجيش المصرى بالفرنج ، ووعدوهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين »(١) ، ولم يكتفوا بذلك ، بل عرضوا عليهم أن يطلقوا سراح البقية الباقية من عسكره ، ويبلغون قرابة إثنى عشر ألف محارب ، ومع ما في هذه العروض السخية من تشجيع الصليبيين على قبولها إلا أن لويس كان مضطرا لقبول مثل هذا الاتفاق ، إذ هو في موقف يملى فيه عليه ، وليس في الموقف الذى يملى فيه على المماليك فخاف الناصر مغبة هذا الاتفاق ، وأدرك أنه موجه ضده ، ففيه ضياع القدس من يده ، كما أن لويس — بمقتضى هذا الاتفاق — كان له حق الاستيلاء على بيت لحم والخليل ونابلس والجليل وجزء من نهر الشريعة ، لذلك أنفذ الناصر جندا من لدنه ، قوامه أربعة آلاف محارب للاستيلاء على غزة .

والمتأمل في هذا الوضع الذى استعرضناه سريعا يتبين — في غير عسر — أن شقة الخلاف كانت تزداد يوما بعد يوم بين أمراء البلاد في الشام ومصر ، وكان لويس بطبيعة الحال يعمل على إذكاء جذوة الخلاف ، ولم يخف الأمر على الخليفة المستعصم بالله ، الذى أدرك ما وراء هذه الحركات من ضعف القوات الإسلامية عامة ، وانتفاع الفرنسيين وحدهم من ورائها .

***

(١) العينى : عقد الجمان ، ص ٢١٥ .

هنا برز موقف بغداد من هذه المسائل بروزاً واضحاً، فيه تقريب مسافة الخلف بين المتخاصمين، والعمل على إزالة الجفوة وإقرار السلام حتى لا يجد الدخيل الغربي منفذاً ينفذ منه، ولذلك عمد الخليفة إلى إرسال رسول من قبله، هو الشيخ نجم الدين أبو محمد عبدالله البغدادي القادري[١]، وتم على يده الصلح في إبريل ١٢٥٣م (= ٦٥١هـ) بين مصر والشام، واتفق على أن يكون «للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله، وأن المعز يطلق جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر[٢]». وبذلك استقرت السيوف في أغمادها «وسكنت الفتنة بين الملوك، واستراح الناس»، وعادت المياه إلى مجاريها.

كانت هذه الحركة من بغداد ضربة معلم جاءت في وقتها.

لقد أفسدت الحركة العراقية الموفقة خطة لويس، وانهارت من جرائها آماله العريضة التي كان يؤملها من وراء الصراع الناشب بين أمراء مصر والشام، وما كان يطمع فيـــه من أن تضرب إحدى القوتين الأخرى فتضعفان معا، ثم يفرغ من الاثنتين؛ وبذلك تخلص له بلاد الشام بأجمعها، وربما مصر أيضا، ويتأتى له حينذاك أن يمسح عار هزيمته في المنصورة.

* * *

(١) العيني: عقد الجمان، ص ٢١٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٥ — ٣٨٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢ — ١٣، ٢٥، أبو الفدا: المختصر، ص ١٣٢، العيني: عقد الجمان، ص ٢١٥.

أدرك لويس التاسع ألا أمل له بعدئذ فى ترقب فرصة كتلك الفرصة التى سنحت له وضاعت من يده بفضل تدخل الخليفة المستعصم ، وأدرك أيضا أنه لا ينبغى عليه أن يقف مكتوف اليدين ، لا سيما وقد طال مكثه فى فلسطين دون أن يقوم بأية حركة إيجابية أو بناحية من نواحي النشاط الحربى المفروض فيه ، خصوصا بعد أن رفض العودة إلى فرنسا وأصر على البقاء فى الشرق حتى يسترد الأراضى المقدسة ، ولذلك بدأ بتقوية بعض المدن الساحلية والقلاع الداخلية ، حذراً من غارة إسلامية مفاجئة ، فكان مما حصنه قلعة يافا وعكا .

وحدث أن أغارت القوات الناصرية — بعد صلح جامع المصريين — على يافا فى يونيو ١٢٥٣ م فى أثناء عودتها إلى قواعدها ، لكنها عجزت عن التغلب عليها ، فغادرتها ، وعرجت على عكا التى أحسن الدفاع عنها « جان إبلين » كونت أرسوف ، ومع ذلك فقد استطاع الدماشقة أن يستولوا على مبالغ كبيرة ، افتدى بها كثير من المسيحيين أنفسهم من يد المغيرين ، على أن الرماة الصليبيين استطاعوا ردهم ، فمضت القوات الإسلامية نحو « صيدا » ، وهاجمت قلعتها المعروفة بقلعة « البحر » ، وأسرفت فى تقتيل من وقع فى يدها [1] ، مما أزعج له خاطر لويس .

بادر لويس إلى مغادرة عكا ، قاصدا صد قوات الناصر يوسف ،

(1) Joinville : Op. Cit., p. 278, 322.

فهاجم « بانياس » وقلعة « الصبيبة » التي هرب إليها أهل البلد المسلمون ، وكان البارزون في القتال في ذلك اليوم جماعة الداوية ، وانتهى الأمر أخيرا بالتفكير في الدخول مع الناصر يوسف في مفاوضات وذلك دون علم لويس الذي انزعج لهذا الأمر ، وقام بهذه الحركة كبير الداوية « رينو دي ڤيشييه » . واتخذ غضب لويس على الداوية صورة عملية ، حيث استقدم إليه رئيس الداوية وفرسانها ومندوب الناصر ، ثم قال لرينو : « أيها السيد : أخبر رسول السلطان أنك نادم على مفاوضة السلطان دون أن تحدثني بالأمر أولا ، وعليك أن تنقض كل ما أبرمته معه » . فاستجاب كبير الداوية وانصاع لما أمره به الملك[1] .

وإذا كان لنا أن نستمد حقيقة مما ذكره جوانفيل فهي اتساع سلطة الملك لويس على جميع النصارى في بلاد فلسطين واعتبارهم إياه ملكا عليهم .

* * *

على أن لويس ما لبث بعد احتكاكه الحربي هذا أن غادر الشام إلى فرنسا ، ليعاود صراعاً جديداً في بلاد المغرب ، وقد بارح الشرق وهو مدرك تمام الإدراك أن هزيمة المصريين له في المنصورة قد قضت على آماله .

وهكذا استطاع الجيش المصري — منذ سبعة قرون تماماً — أن يحفظ مصر ، وأن يحفظ فلسطين ، بل وأن يحفظ بقية العالم العربي من خطر الغزو الأوروبي .

(1) Joinville : Op. Cit p. 294 — 295.

المؤلف

تأليفا :

(١) الحرب الصليبية الأولى (صدر فى سبتمبر ١٩٤٧)

(٢) نور الدين والصليبيون (« « سبتمبر ١٩٤٨)

(٣) الشرق العربى (« « فبراير ١٩٤٩)

(٤) تاريخ المسيحية فى الشرق حتى القرن الخامس الميلادى .

(٥) العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق الأدنى (فى القرن الثانى عشر الميلادى)

(٦) A Transition Period in Byzantine Antioch.

ترجمة :

(١) تاريخ الأندلس للمستشرق الهولندى رينهرت دوزى (فى أربعة مجلدات)

(٢) تاريخ العرب الأدبى للدكتور رينولد نيكلسون

(٣) مذكرات جوانفيل .